رفع العلم

تأليف

أبي نصر محمد بن عبد الله الإمام

دار الآثار
صنعاء


رفع العلم

حُقوقُ الطَّبعِ محفُوظةٌ

الطَّبعَةُ الأُولى

١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م

رقم الإيداع ٦٣١/ ٢٠٠٩

دار الآثار للنشر والتوزيع

www.dar-alathar.com

اليمن: صنعاء- شارع تعز- حي شميلة- مقابل جامع الخير- ص.ب ١٧١٩٠ فاكس ٠٣٢٥٦

(١ ٩٦٧+) هاتف: الإدارة ٦١٣٣٦٥ المكتبة ٦٣٣٧١٧ بريد إلكتروني info@dar-alathar.com

فرع صنعاء: الدائري الغربي- عمارة الخولاني-هاتف ٢٠٥٠٨٥

فرع عدن: كريتر- بجوار مسجد أبان- هاتف ٢٦٦٩٨٦

فرع المكلا: الشرج - أسفل المسجد الجامع من جهة القبلة-هاتف٣٠٧١١٢

فرع دماج: دار الحديث - مقابل مسجد أهل السنة هاتف ٥١٩٣٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

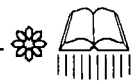

المقـــدمة

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فلقد أخبر النبي ﷺ في أحاديث كثيرة عن تغير حال أمة الإسلام من حسن إلى سيئ، ومن سيئ إلى أسوإ، ومن عز إلى ذل ومن سعادة إلى شقاء ومن قوة إلى ضعف، ومن أخوة في الدين إلى عداء ضد الدين، ومن تعاون على البر إلى تعاون على الإثم والعدوان، ومن رحمة إلى انتقام، ومن أمن إلى خوف، ومن اجتماع إلى افتراق، ومن محاربة لأعداء الله إلى مناصرتهم.

وأفادت أحاديث رفع العلم أن أساس كل التحولات في المسلمين إنما هو بسبب رفع العلم ونقصانه، وهذا السبب مما لا يتنبه له كثير من المسلمين؛ فذهب من ذهب يداوي أمراض المسلمين دون التفات إلى العلم الشرعي الذي هو أساس كل إصلاح.

وقد تواترت الأحاديث الناطقة أنه لا تزال طائفة من أمة الإسلام قائمة على الحق لا يضرها من خالفها ولا من خذلها إلى قيام الساعة، وقد علم أن الطائفة المنصورة الناجية هم أهل الحديث، أهل السنة والجماعة؛ إذ هم المتصفون بالقيام بالحق والسير على منهاج النبوة وهم الغرباء في أمة الإسلام.

وأساس منطلق أهل الحديث الإقبال على العلم النافع فهم يولون العلم عناية كبيرة أورث لهم الاستغناء عن القوانين الوضعية والعادات القبلية والآراء البدعية والسياسات الجهنمية والأهواء العقلية.

ولما رأيت هذا الذي حل بالمسلمين؛ بسبب رفع العلم ونقصانه، علمت علم اليقين أن أعظم ما تفتقر إليه أمة الإسلام هو الدعوة إلى الإقبال على علم النبوة، فرأيت أنه من المناسب ومن النافع لنا طرق مسألة رفع العلم وبيان ضرر ذلك على المسلمين وأخطاره عاجلًا وآجلًا دينا ودنيا، وأردت أن أشارك هذه الطائفة المباركة -أهل السنة والجماعة- في تقوية أساسها وشموخ بنائها بالإقبال على العلم، فتجلية مسألة رفع العلم يزيد في نشاطها ويقوي انتعاشها ويعظم إقبالها ويكثر رواد العلم فيها، فهذه الطائفة المباركة هي أحق من اعتنى بالعلم وأولاه أهمية قصوى، وجعله غاية كبرى ووسيلة عظمى إلى كل فضيلة وأساسًا لكل خير. وقد حرصت أن تكون أبواب هذه الرسالة مدعمة بالأدلة ومنها أقوال السلف مع الحرص على صحتها غالبًا، واعتنيت بنقل أقوال أهل العلم الأفذاذ الجهابذة النقاد، فما أصبت فيها فبفضل الله وحده وتوفيقه لي لا شريك له وعونه لي بكرمه، وما أخطأت فمني ومن الشيطان، ونعوذ بالله من الخذلان، ونستعيذ به من الحرمان، ونسأله النجاة لنا من النيران.

ولا أنسى أن أتوجه إلى ربي بالدعاء لإخواني الذين تعاونوا معي في إعداد هذه الرسالة، فالله أسأل أن يبارك في علمهم وفي وقتهم، وأن يصلح ذريتهم، وأن يجعلنا وإياهم مفاتيح خير مغاليق شر.

وكان الانتهاء من هذه الرسالة يوم الأحد الخامس عشر من شهر المحرم لعام ألف وأربعمائة وثلاثين هجرية.

وكتب:

أبو نصر/ محمد بن عبدالله الإمام

دار الحديث بمعبر - محافظة ذمار

الفصل الأول:

منزلة العلم الشرعي ومكانته

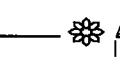

منزلة العلم الشرعي عند أهله

لقد جاءت أدلة كثيرة في القرآن الكريم وصحيح السنة في بيان منزلة العلم وفضله، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨] قال الحافظ ابن رجب في رسالته "ورثة الأنبياء" ضمن مجموع "رسائل ابن رجب" (١/ ٥٠): (وقد يطلق اسم العلماء ويراد إدخال الأنبياء فيهم، كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨] فلم يفرد الأنبياء بالذكر، بل أدخلهم في مسمى العلماء، وكفى بهذا شرفًا للعلماء أنهم يسمون باسم يجتمعون هم والأنبياء فيه!! ومن هنا قال من قال: إن العلماء العاملين هم أولياء الله، كما قال أبو حنيفة والشافعي: إن لم يكن العلماء والفقهاء أولياء الله، فليس لله ولي).

قلت: الأنبياء داخلون في الآية دخولًا أوليا.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] قلت: وكيف يستويان وقد جعل الله العالم كالبصير والجاهل كالأعمى؟! قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩] وأيضًا وصف الله أهل الجهل بأنهم صم بكم في غير آية من كتابه. ففي نفي المساواة بين العلماء والجهال إثبات غاية الشرف للعلماء وغاية الذم للجهال، وقد ذكر الله صدور العلماء

وذاكرتهم وأفهامهم فقال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩] ومعلوم أن العلماء الربانيين ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل في أممهم وأقوامهم، ولكن تختلف أفهام العلماء والدعاة لمنزلة العلم الشرعي، وقد بان لي أن أجلَّ الأفهام: أفهام السلف -الصحابة ومن تبعهم- وتعرف بشهادة أقوالهم لهم بذلك.

(قال عمر بن الخطاب للصحابة: تمنوا. فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبا أنفقه في سبيل الله وأتصدق. وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه في سبيل الله وأتصدق. ثم قال عمر: تمنوا. فقالوا: ما ندري، يا أمير المؤمنين. فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وحذيفة بن اليمان). رواه ابن سعد في "الطبقات" ٣/ ٤١٣ والحاكم في "المستدرك" ٣/ ٢٢٦ واللفظ له، وهو حسن.

فعمر قدم الحاجة إلى العلم على الحاجة إلى المال. والحاجة إلى أهل العلم مقدمة على الحاجة إلى أهل المال.

وقال حكيم العرب الأحنف بن قيس: (... كل عز لم يؤيد بعلم فإلى ذل ما يصير). أخرجه الدِّينَوَرِيُّ في "المجالسة" ٥/ ٩٧، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" ٢٤/ ٣٣١ وسند رجاله ثقات إلا والد الأصمعي، وهو قريب بن عبدالملك، ذكره ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" ٧/ ١٤٩ ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وقد ذكره ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" ١/ ٢٥٦ رقم (٣٠٩) بدون سند.

فوا أسفًا كم يحرص كثير من أرباب الملك والنفوذ على البقاء على الجهل، وكم يجندون لمحاربة العلم النافع؛ بسبب تصوير الشيطان لهم أن التعلم سبب لزوال ملكهم!!

وقال الذهبي في "السير" ٦/ ٩٠: (وصح عن ربيعة قال: العلم وسيلة إلى كل فضيلة).

وقال أمير المؤمنين ابن شهاب: (كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضا سريعًا فنعش العلم ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله). أخرجه الدارمي رقم (٩٧)، واللالكائي في شرح اعتقاد أهل

السنة والجماعة رقم (١٣٦-١٣٧)، وأبونعيم في الحلية ٣/ ٣٦٩، وابن المبارك في الزهد (٨١٧) وهو صحيح.

وقد جاء من قول ابن شهاب نفسه وسنده جيد: (فأين الذين يرون أن الإقبال على العلم الشرعي مدعاة للتخلف من هذه الأفهام القويمة؟ أفلا يستحيون على أنفسهم وينزهونها عن هذه السفاسف؟!

وقال الحافظ سفيان بن عيينة: (أتدرون ما مثل العلم؟ مثل العلم مثل دار الكفر ودار الإسلام، فإن ترك أهل الإسلام الجهاد جاء أهل الكفر فأخذوا الإسلام، وإن ترك الناس العلم صار الناس جُهَّالًا). أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٨١، وسنده حسن.

وقال الشافعي: (من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته). أخرجه أبو نعيم في الحلية ٩/ ١٢٣، والخطيب في شرف أهل الحديث رقم (١٣٩) واللفظ له، والبيهقي في المدخل (٥١١) وفي مناقب الشافعي ١/ ٢٨١. وهو صحيح إليه.

وقال العلامة ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" ١/ ٣٦٨-٣٧٠ مبينًا أن أمراض القلوب لا دواء لها إلا بالعلم الشرعي: (وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة، فإنه لا بد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة، كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومدحتهم؛ فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما... فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان؛ لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم).

قلت: والعلم الشرعي ليس شفاء للقلوب من أمراضها فقط، بل إنه يؤثر عليها حتى يأسرها، قال العلامة ابن القيم رحمه الله في "مفتاح دار السعادة" ١/ ٢٤٤-٢٤٥: (بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر

القلب وتقوده وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار في علمه فهو إما لضعف حجته وسلطانه وإما بقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له).

فإذا كان صنيع العلم بالقلوب ما ذكر، وهو كذلك، فهو دليل على أنه لا شيء يقوم مقامه في إصلاح الباطن، ومعلوم أن أساس كل خير هو بإصلاح القلوب.

وعلى كل: لينظر العالم والداعي إلى الله إلى معرفة السلف لمنزلة العلم، وينظر هل معرفته بمنزلة العلم الشرعي تعانق معرفة السلف ومن تبعهم؟ فإن كانت تعانقها فليحمد الله الذي قوى معرفته به وبدينه، وإن كانت دون ذلك فخذ بمعرفة هؤلاء واسلك سبيل الإقبال على العلم والدعوة إليه والدفاع عنه كما سلك السلف ومن تبعهم بإحسان، فلا إنقاذ للمسلمين في عصرنا أعظم من تفقههم في دينهم، وهذا أمر يختص الله به من يشاء من عباده.



المفاضلة بين العلم وبين عبودية الله وحده لا شريك له

سبق أن ذكرنا قريبًا أنا خلقنا لمعرفة الله كما خلقنا لعبادته، فالعلم هاهنا غاية كما أن عبودية الله غاية. ويفضل العلم على العبادة بأمور، منها:

١) أنه قبلها قال الله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩].

٢) أن العلم أساسها، ومن أجل هذا الأساس فطر الناس على معرفة الله ونصبت الآيات الكونية لتدل على الله، وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب لتعرف بالله وحقوقه

وحقوق عباده، فعلى هذا فالعبادة من مقتضيات العلم ولوازمه ومنافعه وثماره.

٣) أن العلم لبُّ العبادة وروحها، فمتى رفع العلم منها صارت العبادة كالجسد الذي لا روح فيه، ويدل على هذا الأحاديث التي فيها أن أول ما يرفع الخشوع والأمانة وغير ذلك. والمراد برفع الخشوع رفع العلم به، والعلم بالأمانة، وقل هكذا في الصدق والإخلاص وغير ذلك.



المفاضلة بين العلم وبين صلاة الليل وصلاة النوافل

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**» رواه الترمذي (٢٦٨٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم (٧٦٦٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب...**» رواه أحمد ٥/ ١٩٦ وأبو داود (٣٦٤١) واللفظ له، وصححه العلامة الألباني.

وعن معمر، عن الزهري قال: (ما عبد الله بمثل الفقه) رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" ١/ ١١٩ رقم (١١٠) وعبد الرزاق ١١/ ٢٠٤٧٩ والخطيب في "الفقيه المتفقه" ١/ ١١٩ رقم (٨١). ورواه ابن عبد البر وأبو نعيم ٣/ ٣٦٥ بلفظ (ما عبد الله بشيء أفضل من العلم) وسنده صحيح.

وقال ابن وهب: كنت عند مالك بن أنس فجاءت صلاة الظهر أو العصر، وأنا أقرأ عليه وأنظر في العلم بين يديه. فجمعت كتبي وقمت لأركع، فقال لي مالك: (ما هذا؟ قلت: أقوم للصلاة، قال: إن هذا لعجب!! فما الذي قمت إليه بأفضل من الذي كنت فيه، إذا صحت النية فيه) رواه ابن عبد البر في الجامع ١/ ١٢٢ رقم (١١٦) وسنده صحيح.

وقال سفيان الثوري: (ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت النية) رواه ابن عبد البر في الجامع ١/١٢٣-١٢٤ رقم (١١٩)، وسنده حسن.

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: (طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة) رواه ابن عبد البر في "الجامع" ١/١٢٣ رقم (١١٨)، وأبو نعيم في الحلية ٩/١١٩، وابن أبي حاتم في "آداب الشافعي ومناقبه" ص(٩٧)، والبيهقي في "مناقب الشافعي" ٢/١٣٨ وسنده صحيح.

وعن إسحاق بن منصور قال: (قلت لأحمد بن حنبل: قوله: (تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها) أي علم أراد؟ قال: هو العلم الذي ينتفع به الناس في أمر دينهم، قلت: في الوضوء والصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا؟ قال: نعم) رواه ابن عبد البر في "الجامع" ١/١١٨ رقم (١٠٨) وسنده صحيح.

تنبيه: لا يعني تفضيل العلم على النوافل التقليل من شأن القيام بالنوافل والمحافظة عليها، بل كل من انتفع بالعلم كان من السابقين إلى المحافظة على النوافل، خصوصًا صلاة الليل.



المفاضلة بين العلم وبين الجهاد في سبيل الله

فضل العلم على الجهاد من عدة وجوه، ومنها:

١) العلم يطلب لذاته ولغيره وهو غاية ووسيلة، والجهاد يطلب لغيره وهو وسيلة إلى غيره، ولا شك أن ما يطلب لذاته أجل مما يطلب لغيره.

٢) الجهاد تابع للعلم، فلولا العلم ما قام الجهاد، فإن أقيم العلم أقيم الإسلام ومنه الجهاد، وإن لم يقم العلم فيخشى أن يذهب الإسلام.

٣) أن الله قدم مرتبة العلماء على مرتبة الشهداء، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ

فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾[النساء:٦٩-٧٠].

٤) أن العلم يرد به شبهات الأعداء ما لا ترد بالسيف، فهاهم الأعداء غزوا المسلمين في هذا العصر بأفكارهم إلى عقر دارهم، وهاهم المسلمون -إلا من رحم الله- يتبعون اليهود والنصارى وينسلخون من الإسلام شيئًا فشيئًا، ولا قدرة على رد هذه الأفكار والضلالات إلا بعد العلم الشرعي.

٥) أن الجهاد في سبيل الله تابع للمصلحة فتارة تقتضيه وتارة لا تقتضيه، أما العلم فالمصلحة تقتضيه دائمًا قبل الجهاد ومع الجهاد وبعد الجهاد.

٦) مشقة العلم أوسع من مشقة الجهاد؛ لأن المتعلم يحتاج إلى إنفاق العمر والوقت والمال حسب الحاجة لينال العلم. والجهاد إن وجد يأخذ وقتًا من عمر الشخص حسب الحاجة.

وهاهي أقوال بعض أهل العلم في بيان أفضلية العلم على الجهاد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لأن أعلم بابًا من العلم في أمر ونهي أحب إلي من سبعين غزوة في سبيل الله) أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" ١/ ١٠٢ رقم (٥٢)، ورجاله ثقات غير أبي عبد الله الأزدي، لم أعرفه.

وعن الحسن البصري قال: (لأن أتعلم بابًا من العلم وأعلمه مسلمًا أحب إلي من أن تكون لي الدنيا كلها أجعلها في سبيل الله) أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" ١/ ١٠٢ رقم (٥٣)، وسنده حسن.

وقال الشافعي: (ليس بعد أداء الفرائض شيء أفضل من طلب العلم! قيل له: ولا الجهاد في سبيل الله؟! قال: ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل). "المدخل إلى السنن الكبرى" رقم (٤٧٥) وسنده صحيح.

قال ابن بطال في "شرح صحيح البخاري" ٥/ ٧-٨ وهو يشرح قوله عليه الصلاة

والسلام:« **أفضل الناس مؤمن يجاهد في سبيل الله** : (ليس على عمومه ولا يريد أنه أفضل الناس قاطبة؛ لأن أفضل منه من أوتي منازل الصديقين، وحمل الناس على شرائع الله وسنن نبيه، وقادهم إلى الخيرات، وسبب لهم أسباب المنفعة في الدين والدنيا، لكن إنما أراد ﷺ -والله أعلم- أفضل أحوال عامة الناس؛ لأنه قد يكون في خاصتهم من أهل الدين والعلم والفضل والضبط بالسنن من هو أفضل منه).

وقال القرافي في الفروق ٢/ ٣٧٥ وهو يشرح جملة (لو وزن مداد العلماء بدم الشهداء لرجح) بسبب طاعة العلماء لله تعالى بضبط شرائعه وتعظيم شعائره التي من جملتها الجهاد وهداية الخلق إلى الحق، وتوصيل معالم الأديان إلى يوم الدين، ولولا سعيهم في ذلك من فضل الله تعالى لانقطع أمر الجهاد وغيره.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى" ٣٠/ ٢٠٤: (أما تعليم القرآن والعلم بغير أجرة فهو أفضل الأعمال وأحبها إلى الله. وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام، ليس هذا مما يخفى على أحد ممن نشأ بديار الإسلام).

وقال ابن مفلح في "الآداب الشرعية" ٢/ ١٤٢: (وواجب على الإمام أن يتعاهد المعلم والمتعلم كذلك، ويرزقهما من بيت المال؛ لأن في ذلك قوامًا للدين فهو أولى من الجهاد؛ لأنه ربما نشأ الولد على مذهب فاسد فيتعذر زواله من قلبه).

وقال الحافظ ابن رجب في رسالته "ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء" ص (٣٧) بعد أن سرد أقوالًا عن السلف في فضل العلم على الجهاد: (ومما يدل على تفضيل العلم على جميع النوافل أن العلم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرقة؛ فإن العلم أفضل أنواع الذكر... وهو أيضًا أفضل أنواع الجهاد).

وقال العلامة ابن القيم في "جلاء الأفهام" (٤٩٢-٤٩٣): (وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم؛ جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه).

وقد نقل بعض العلماء اتفاق أهل العلم على تفضيل العلم على الجهاد في سبيل الله، والصحيح أنه قول أكثر أهل العلم؛ لأن هناك من العلماء من سوى بين العلم والجهاد، ومنهم من جعل العلم في وقت التعلم أفضل، و الجهاد في وقت الجهاد أفضل. وهذا القول الأخير أجمع وأنفع. والله أعلم.

تنبيـــهٌ: لا يفهم من تفضيل العلم على الجهاد التهوين من شأن الجهاد؛ فهو «ذروة الإسلام وسنامه» رواه أحمد ٥/ ٢٣٧، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيح الجامع" (٥١٣٦). ولا قيام للإسلام إلا به، وصدق شيخ الإسلام إذ يقول، كما في "مجموع الفتاوى" ٢٨/ ٢٣٢: (قوام الدين بالكتاب الهادي، والسيف الناصر).



المفاضلة بين العلم والإنفاق في سبيل الله

قال الحسن البصري: (لأن أتعلم بابًا من العلم، فأعلمه مسلمًا أحب إلي من أن تكون لي الدنيا كلها، أجعلها في سبيل الله تعالى) رواه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" ١/ ١٠٢ رقم (٥٣)، وسنده صحيح.

ومع هذا الخير الواسع في العلم والتعليم إلا أن الغالب على المسلمين العزوف عن التعلم والتعليم؛ ظنًّا منهم أن إحراز المال أسهل وأنفع، وسهَّل هذا الاندفاع قوة الرغبة في المال وشدة الاندفاع إليه، وهذا منهم استجابة لأهوائهم، ولو استشاروا عقولهم لأشارت عليهم بالرشد، ألا يرون أن كثيرا منهم لا مال ولا دين؟! ألا ينظرون إلى آفات المال الكثيرة؟! ألا يسلمون أن المال داعية إلى الطغيان؟!



المفاضلة بين سلطان العلم وسلطان الملك

وخلاصة هذه المفاضلة ما قاله العلامة ابن القيم رحمه الله في "مفتاح دار السعادة" ١/ ٢٤٤-٢٤٥: (بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد؛ فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها، ذليل مقهور تحت سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة؛ فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة).

فانظر كم الفارق بين السلطانين، ألا تحب أن يكون سلطانك العلم والعمل به؟

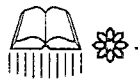

المفاضلة بين العلم والمال

لقد أشبع العلامة ابن القيم هذه المسألة بحثًا في "مفتاح دار السعادة" ١/ ٤١٨-٤٣٥ فقال: (وفضل العلم على المال يعلم من وجوه) وسرد أربعين وجهًا، أذكر هنا خمسة منها: الأول: أن العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الملوك والأغنياء. الثاني: أن العلم يحرس صاحبه وصاحب المال يحرس ماله. الثالث: أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر، والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن. الرابع: أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفَاقَةِ. الخامس: أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله والعلم يدخل معه في قبره. وقد بسطها مع غيرها وشرحها فرحمه الله رحمة واسعة. وختم ذلك بقوله: (فعدة هذا السفر هو

العلم والعمل، وعدة الإقامة جمع الأموال والادخار، ومن أراد شيئًا هَيَّأَ له عدته، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦]).

قلت: ومع المعرفة بمنافع المال إلا أننا نقطع بتفضيل العلم عليه، فأنصح بقراءة الوجوه التي ذكرها العلامة ابن القيم في تفضيل العلم على المال، ولا يسعني إلا أن أتمثل بقول الراجز:

رضينا قسمة الجبار فينا ... لنا علم وللجهال مالُ

فعز المال يفنى عن قريب ... وعز العلم باق لا يزالُ

قلت: لو قال: (رضينا قسمة الرزاق فينا). لكان أولى.

المفاضلة بين العلم وسائر اللذات

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**منهومان لا يشبعان: منهوم في العلم لا يشبع منه، ومنهوم في الدنيا لا يشبع منها**» أخرجه الحاكم ١/ ٩١، وذكره شيخنا الوادعي في "الصحيح المسند" ١/ ٦٣ رقم (٥١)، وصححه أيضًا العلامة الألباني في تعليقه على "المشكاة" رقم (٢٦٠).

فطلاب الدنيا هم الذين يطلبون الشهوات العاجلة ويتلذذون بها، حتى لا يقدروا على تركها بسهولة. ولذاتهم فيها كل واحد بحسبه، فمنهم من لذته في النساء، ومنهم من لذته في شرب الخمور، ومنهم من لذته في الرقص والغناء، ومنهم من لذته في كثرة النوم، ومنهم من لذته في جمع المال والملك والرئاسة، ومنهم من لذته في العلوم المضرة من سحر وتنجيم وإفساد وضلال وإلحاد، ومنهم من لذته في العلوم المباحة من طب وحساب وعلوم وعمران وحضارات وفنون ورسوم وغير ذلك. فهذه

الشهوات والملذات كلها لا تساوي لذة العلم الشرعي، قال العلامة محمد بن عبد الرحمن الوصابي في كتابه "نشر طي التعريف في فضائل حملة العلم الشريف":

ما لذة الناس في الدنيا بأجمعهم ولا الملوك وأهل اللهو والطرب
كلذتي في طِلاَب العلم يا ولدي فالعلم معتمدي حقا ومكتسبي

وقال آخر:

ولطمة عالم في الخد مني ألذ لي من شرب الرحيق

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مفتاح دار السعادة ١/ ٤٤٧: (ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة، ولذة شهوات الأكل والشراب، والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسان فيها الحيوان، ولذة الشر والظلم والفساد والعلو في الأرض شيطانية يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده. وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم والإيمان؛ فإنها تكمل بعد المفارقة؛ لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها، فإذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح، فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم المقيم فهو في العلم والإيمان اللذين بهما كمال سعادة الإنسان، وأيضًا فإن تلك اللذات سريعة الزوال وإذا انقضت أعقبت هما وغمًّا وألمًا يحتاج صاحبها إلى أن يداويه بمثلها؛ دفعا لألمه، وربما كان معاودته لها مؤلمًا له، كريهًا إليه، لكن يحمله عليه مداواة ذلك الغم والهم، فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبته، والإقبال عليه، والتنعم بذكره؟! فهذه هي اللذة الحقيقية).

قلت: لا يتسع المقام لبسط أوجه فضل لذة العلم على سائر اللذات، وما ذكرناه في هذه العجالة كاف للمجترئ بالنزر اليسير.

وصفوة القول في المفاضلة بين العلم الشرعي وبين العبادات والأعمال واللذات أن يقال: العلم مطلوب لكل عبادة قبلها ومعها وبعدها، وهو روحها وجمالها.

وكذا قل في الأعمال الصالحة، أفلا تتعلم أكثر وأكثر؟! أفلا تترفع عن الجهل والضياع؟!



بالعلم يقهر أعداء الإسلام

لقد جعل الله محاجَّة الكفار بالعلم جهادًا أكبر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥١-٥٢].

قال العلامة ابن القيم في "زاد المعاد" ٣/ ٥: (فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام).

وقال أيضًا في نفس المصدر ٣/ ٦: (ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب**» رواه أحمد ٦/ ٢١ من حديث فضالة بن عبيد، وصححه العلامة الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٥٤٩) كان جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو في الخارج وأصلًا له؛ فإنه من لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج، فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما، وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده... فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦].

والأمر باتخاذه عدوًا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس).

وقال أيضًا في "الفوائد" ص(٩٧): (تالله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تولى

عنك الولي!! فلا تظن أن الشيطان غلب، ولكن الحافظ أعرض).

قلت: جهاد الأعداء بالعلم هو السلاح الأكبر عليهم وكيف لا وهو يزهق باطلهم ويكشف تلبيساتهم ويرد كيدهم ويفضح مؤامرتهم، وكيف لا يكون سلاحًا فتاكا وهم يعلمون أن العلم النافع أساس لإقامة الجهاد إذ لا جهاد إلا به، وحارس للمجاهدين من غوائل أنفسهم وأهوائهم، ومن تسلط شياطين الجن والإنس عليهم، ومصاحب للجهاد فيصححه فلا يكون جهاد غدر ولا بدعة وغير ذلك، وسلاح بعد الجهاد لتحفظ ثمرة الجهاد، وهي نشر الإسلام، وتعليم الخير، ورد شبهات الأعداء.



إذا أطلق العلم في القرآن والسنة فالمراد به: العلم الشرعي، وإذا أطلق العلماء فالمراد بهم: علماء الإسلام الذَّابُّون عن سنة سيد الأنام

أصناف العلم كثيرة ولكل أهل فن من فنون العلم مصطلحات تخصهم، وعند أهل الإسلام إذا أطلق العلم على لسان الشرع المطهر فالمراد به الفقه في الدين، قال العلامة ابن القيم في "إعلام الموقعين" ٤/ ١٣١ في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١] (واللام في (العلم) ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد أي: العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ. وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم، كان اتباعهم واجبًا).

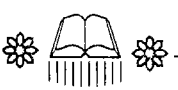

مكانة أهل العلم الشرعي وافتقار العالَم إليهم

لقد جعل الله مرتبة أهل العلم بعد مرتبة النبوة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء:٦٩] قال الإمام الكبير سفيان بن عيينة: (أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين

عباده، وهم الرسل والعلماء). نقلًا من "مفتاح دار السعادة" ١/ ٣٩٠.

وقال إسحاق بن عبد الله: (أقرب الناس من درجة النبوة: العلماء وأهل الجهاد، والعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأهل الجهاد جاهدوا على ما جاء به الرسل). نقلًا من المصدر السابق.

وقال النضر بن شُمَيلٍ: (من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عباده). المصدر السابق ١/ ٥٠٤.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله في "طريق الهجرتين" ٢/ ٧٦٤: (فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة، وهؤلاء هم الربانيون وهم الراسخون في العلم وهم الوسائط بين الرسول ﷺ وأمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك).

ولم تكن مرتبة علماء السنة عالية رفيعة لا تدانيها مرتبة من مراتب التفضيل لبني جنسهم إلا لأنهم ورثوا الأنبياء وراثة تامة، قال الرسول ﷺ: « **وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» رواه أبوداود برقم (٣٦٤١) واللفظ له، وابن ماجه رقم (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. فهذه الوراثة جعلتهم يتصفون بما اتصف به الأنبياء والرسل من الخشية والمراقبة لله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، فأهل العلم أهل الهداية والتوفيق والاتباع والبصيرة والأمانة والتوكل على الله واليقين بالحق، وأهل العدالة والشجاعة والصدق فأهلتهم هذه الصفات للقيام بما قام به الأنبياء.

قال الشعبي: (كل أمة علماؤها شرارها إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم). نقلًا من "مجموع الفتاوى" ٧/ ٥٢٤.

وفسر سفيان بن عيينة قوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

﴿كُنتُ﴾[مريم:٣١] قال: (معلمًا للخير). نقلًا من "مفتاح دار السعاة" ١/ ٥٢٤ فما أوسع نفع العلم.

ولهذا قال العلامة ابن القيم رحمه الله في المصدر السابق: (وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه).

وعن أحمد بن سنان، عن رجل ذكره (أنه رأى النبي ﷺ في المنام، وكان النبي ﷺ قائمًا في المسجد بين حلقتين في إحداهما أحمد بن حنبل وفي الأخرى أحمد بن أبي دؤاد والنبي ﷺ يقول: « ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ﴾[الأنعام:٨٩] -وأشار النبي ﷺ إلى ابن أبي دؤاد وأصحابه- ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[الأنعام:٨٩] » وأشار النبي ﷺ إلى أحمد بن حنبل وأصحابه) أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث رقم (١١) وسنده إلى أحمد بن سنان صحيح.

وقال سهل التُّسْتَرِيُّ: (من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء، يجيء الرجل فيقول: يا فلان، أيش تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: طُلقت امرأته. ويجيء آخر فيقول: حلفت بكذا وكذا؟ فيقول: ليس يحنث بهذا القول. وليس هذا إلا لنبي أو عالم؛ فاعرفوا لهم ذلك). نقلًا من "مفتاح دار السعادة" ١/ ٥٠٥.

وقال العلامة ابن القيم في كتابه "مفتاح دار السعادة" ١/ ٤٩٢-٤٩٤ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾[الأنعام:٨٩]: (ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلا وللمؤمنين بهم تبعًا، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته فهم الموكلون بها وهذا ينتظم الأقوال التي قيلت في الآية... والمقصود أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علما وعملًا وجهادًا لأعدائها وذبًّا عنها، ونفيًا لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين).

قلت: وما وكل الله علماء الحديث بالدفاع عن دينه إلا لأنه جعلهم حجة على

الخلق أجمعين، ولا يعبأ الله بالجهال، بخلاف أهل العلم؛ فهم المقبولون عنده قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٨].

قال ابن عاشور في "تفسيره" ١٥/ ٢٣٣: (أي: إنما كان إيمانكم بالقرآن وعدمه سواء؛ لأنه مستغن عن إيمانكم به بإيمان الذين أوتوا العلم من قبل نزوله، فهم أرجح منكم أحلاما وأفضل مقامًا وهم الذين أوتوا العلم؛ فإنهم يسمعونه ويؤمنون به ويزيدهم إيمانًا بما في كتبهم من الوعد بالرسول الذي أنزل هذا عليه).

ولما كان علماء الإسلام المتمسكون به حجة عند الله، أثنى الله عليهم كثيرا في كتابه كما هو معلوم، وأثنى عليهم رسوله ﷺ في سنته، بل جعل الله الموجودات تصلي عليهم، قال الرسول ﷺ: «**إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في بحره، يصلون على معلمي الناس الخير**» رواه الترمذي رقم (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وصححه العلامة الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي".

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... **وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء**» رواه أبو داود رقم (٣٦٤١) وهو حديث حسن.

قال العلامة ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" ١/ ٢٥٣: (فإن معلم الناس الخير لما كان مظهرًا لدين الرب وأحكامه ومعرفًا لهم بأسمائه وصفاته، جعل الله من صلاته وصلاة أهل سماواته عليه ما يكون تنويها به وتشريفًا له وإظهارًا للثناء عليه بين أهل السماء والأرض).

وما أحسن ما قاله العلامة ابن القيم في حاجة الخلق إلى علماء النبوة: (وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الوجود وروحه، ولا يستغنى عنهم طرفة عين). المصدر السابق ١/ ٣٧١.

وللخطيب البغدادي كلام نفيس في بيان منزلة علماء الحديث في كتابه "شرف أصحاب الحديث" ص (٢٨) قال: (وقد جعل الله تعالى أهله أركان الشريعة، وهدم بهم كل بدعة شنيعة؛ فهم أمناء الله من خليقته، والواسطة بين النبي ﷺ وأمته، والمجتهدون في حفظ ملته. أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائرة، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة، وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه، أو تستحسن رأيا تعكف عليه، سوى أصحاب الحديث؛ فإن الكتاب عدتهم، والسنة حجتهم، والرسول فئتهم، وإليه نسبتهم، لا يعرجون على الأهواء، ولا يلتفتون إلى الآراء، يقبل منهم ما رووا عن الرسول، وهم المأمونون عليه والعدول، حفظة الدين وخزنته، وأوعية العلم وحملته. إذا اختلف في حديث، كان إليهم الرجوع، فما حكموا به، فهو المقبول المسموع. ومنهم كل عالم فقيه، وإمام رفيع نبيه، وزاهد في قبيلة، ومخصوص بفضيلة، وقارئ متقن، وخطيب محسن. وهم الجمهور العظيم، وسبيلهم السبيل المستقيم. وكل مبتدع باعتقادهم يتظاهر، وعلى الإفصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر، من كادهم قصمه الله، ومن عاندهم خذله الله. لا يضرهم من خذلهم، ولا يفلح من اعتزلهم المحتاط لدينه إلى إرشادهم فقير، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير، وإن الله على نصرهم لقدير).

وقال الإمام أحمد في خطبة كتابه "الرد على الزنادقة والجهمية" ص(١٧٠): (الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه؟! وكم من ضال تائه قد هدوه؟! فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين).

وخلاصة الكلام على بسط فضل العلم وأهله مبثوث في الكتب التي ألفت في هذا الباب.

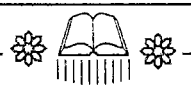

أحوج الناس إلى العلم الشرعي: العلماء

لا ينبغي أن يخفى على العلماء والدعاة وطلاب العلم أنهم أحوج المسلمين إلى العلم الشرعي، ففي «الحلية» لأبي نعيم ٧/ ٢٨١ بسند حسن من طريق أحمد بن أيوب قال: اجتمع الناس إلى سفيان بن عيينة فقال: من أحوج الناس إلى هذا العلم؟ فسكتوا ثم قالوا: تكلم، يا أبا محمد! قال: (أحوج الناس إلى العلم: العلماء، وذلك أن الجهل بهم أقبح؛ لأنهم غاية الناس وهم يسألون).

الله أكبر ما أعظم هذا البيان وأروع هذه الجملة؛ فلله در علماء السلف، ولله در القائل:

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددت علما زادني علمًا بجهلي

فمن كان باكيًا فليكن أهل العلم أول الباكين على ما ذهب من أوقاتهم سدى، وعلى ما ضاع من علمهم بعد أن أوتوه فإنما ذهب عليهم أعظم وأغلى مما ذهب على الناس من دنياهم الفانية.

وقد كان علماء السلف ومن تبعهم من الخلف يبثون أسفهم وحزنهم وتنهمر دموعهم على ذلك، فقد رويت الأخبار عنهم، ومنها: أن أمير المؤمنين شعبة بن الحجاج كان إذا نسي الحديث بكى!!

وكان الإمام الكبير سفيان بن عيينة يقول: (إذا كان الخطيئة يبكي على شعره، فأنا أحق أن أبكي على حديث رسول الله ﷺ). وأمثال هذه الروايات كثير.

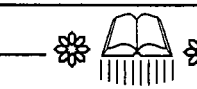

خلق الله الجن والإنس لمعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله

من المعلوم أن الله خلق الجن والإنس لعبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، وأيضًا خلقنا الله لمعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذه المعرفة لا تكون إلا بالعلم الشرعي الذي خلقنا من أجله، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[الطلاق:١٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد:١٩] وقد جلى هذه المسألة العلامة ابن القيم في كتابه "مفتاح دار السعادة" ١/ ٥٣٥ قال: (فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها؛ فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ۞﴾[الطلاق:١٢] فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد:١٩] فالعلم بوحدانيته تعالى وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفى به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبها ومقتضاها، فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها، فكذلك العلم به ومعرفته).

وقال العلامة ابن رجب في رسالته "ورثة الأنبياء" ضمن "مجموع رسائل الحافظ ابن رجب" ١/ ٤١: (فأفضل العلم: العلم بالله، وهو العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيبته وإجلاله وعظمته والتبتل إليه

والتوكل عليه والصبر والرضا عنه والاشتغال به دون خلقه، ويتبع ذلك العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتفاصيل ذلك والعلم بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه وما يحبه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة وما يكرهه من عبادة من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة).

فسلم -أيها المسلم- تسليمًا كاملًا واجزم يقينًا أن الله خلقك لأعظم مطلوب وأجل مرغوب وهو معرفته ومعرفة حقوقه وأحكامه.

وسيأتي مزيد لهذا في القسم الأول من أقسام رفع العلم.

الفصل الثاني:

رفع العلم



الأدلة على نقصان العلم ورفعه

لم يأتِ نص في القرآن على رفع العلم. وجاء الرفع في القرآن بمعناه وهو النقص، على قول بعض أهل العلم.

استدل القائلون بنقصان العلم في القرآن بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[الرعد:٤١]. قال عطاء: (ذهاب فقهائها وخيار أهلها) أخرجه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" ١/ ٦٠٠-٦٠١. وقال: (وقول عطاء في تأويل الآية حسن جدًا تلقاه أهل العلم بالقبول).

قلت: لا يصح هذا الأثر عن عطاء؛ لأنه من طريق طلحة بن عمرو الحضرمي المكي، وهو متروك عند أحمد والنسائي والبخاري وابن المديني وغيرهم. وقد جاء عن عكرمة والحسن، ولا يصح.

وفي الآية أقوال أخرى أحسنها قول من قال: (المراد بنقصانها: ظهور المسلمين على المشركين، ويكون المراد بالأرض هاهنا: مكة. ويقوي هذا القول أن الآية مكية، ويقوي ذلك أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾[الرعد:٤١] خطاب للمشركين الأحياء. ويقوي ترجيح تفسيرها بظهور المسلمين على المشركين ما بعد الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾[الرعد:٤١] وأيضًا قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[الأنبياء:٤٤]

فقوله: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ، استفهام إنكاري إبطالي يبطل الله به ظن الكفار أنهم الغالبون. وقد رجح هذا القول جماعة من المفسرين، منهم ابن جرير الطبري وابن كثير والشنقيطي.

وللمزيد انظر كتابي "نقض النظريات الكونية" ص(٣٤٢-٣٤٣).

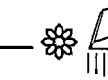

ذكر الأحاديث التي فيها رفع العلم

لقد جاءت أحاديث كثيرة تدل على رفع العلم، أذكر منها ما تيسر:

الحديث الأول:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :« **اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم**» رواه البخاري رقم (٧٠٦٨).

وقد فسر ابن مسعود هذا الحديث بتفسير أبان المراد فيه، فقال رضي الله عنه : (لا يأتي عليكم يوم إلا وهو شر من اليوم الذي كان قبله حتى تقوم الساعة لست أعني رخاء من العيش يصيبه ولا ما لا يفيده، ولكن لا يأتي عليكم يوم وإلا وهو أقل علما من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فعند ذلك يهلكون) أخرجه بهذا اللفظ يعقوب الفسوي في "ذيل المعرفة والتاريخ" كما في "الفتح" ١٣/ ٢٧ من طريق الحارث بن حَصِيرَة، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود رضي الله عنه . والحارث قال فيه الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ. وأخرجه الدارمي ١/ ٢٧٩ رقم (١٩٤) وابن عبد البر في الجامع رقم (٢٠٠٧) وابن وضاح في البدع والنهي عنها رقم (٧٨) والخطيب في "الفقيه والمتفقه" ١/ ٤٥٦ رقم (٤٨٤) من طريق مجالد عن الشعبي عن مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: (لا يأتي عليكم عام إلا وهو شر من الذي كان قبله أما إني لست أعني عاما أخصب من

عام ولا أميرًا خيرًا من أمير ولكن علماءكم وخياركم وفقهاءكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خلفًا ويجيء قوم يقيسون الأمر برأيهم). والأثر حسنه الحافظ في الفتح ١٣/ ٢٧-٢٨. وهو كذلك.

وعلى أن معنى الحديث ما ذكره ابن مسعود فيكون الحديث باقيا على عمومه الأغلبي، وهو أن كل زمان شر من الذي قبله إلا ما ندر، وهذا المعنى يتفق مع حال المسلمين على مر تاريخهم. فالعلم في الصحابة أكثر بكثير منه في التابعين، والعلم في التابعين أكثر منه في أتباع التابعين.

وأما بعد انقراض عصر السلف فقد كثر ظهور علماء البدع وانتشارهم وسيطرتهم على كثير من المسلمين واستجابة كثير من المسلمين لهم وصار العلم ينزوي في أعداد قليلة ولا يزال هذا النقص في الأمة إلى أن يفتقد وجود عالم واحد للمسلمين كلهم، ولا يعارض هذا النقص بحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**» فإن هذا التجديد جزئي وليس كليا، وفي فترات دون فترات، وهو أيضًا نسبي، فتارة يكون التجديد في التوحيد، وتارة في العبادات والمعاملات، وتارة في السياسة، وأيضًا هو نسبي من جهة القبول وعدمه، والانتشار وعدمه، فعلى سبيل المثال: شيخ الإسلام ابن تيمية أحد المجددين ولكن لم ينتشر تجديده في عصره كانتشاره في عصرنا. ومن النادر الذي سيكثر فيه علماء الإسلام عصر المهدي الذي يقيم الله على يديه العدل، ويهلك الله فيه كل الملل. وعصر المهدي ووقته قصير جدًا بجانب القرون الماضية.

الحديث الثاني:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا**» رواه البخاري رقم (٨٠) واللفظ له، ومسلم رقم (٢٦٧١).

الحديث الثالث:

عن عبدالله وأبي موسى رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيه الهرج**» والهرج: القتل. رواه البخاري رقم (٧٠٦٢)، ومسلم رقم (٢٦٧٢).

الحديث الرابع:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج**» قيل: يا رسول الله، وما الهرج؟ فقال: هكذا بيده، فحرفها كأنه يريد القتل. رواه البخاري رقم (٨٥) ومسلم رقم (٦٧٣٣) بلفظ: (يتقارب الزمان ويقبض العلم) وعند ابن ماجه برقم (٤٠٥٢) بلفظ: (وينقص العلم).

الحديث الخامس:

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رءوسا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**» رواه البخاري رقم (١٠٠) واللفظ له، ومسلم رقم (٢٦٧٣) وسيأتي الكلام عليه قريبًا إن شاء الله.

الحديث السادس:

عن عوف بن مالك رضي الله عنه أنه قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، فنظر في السماء ثم قال: «**هذا أوان العلم أن يرفع!**» فقال له رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد: أيرفع العلم، يا رسول الله، وفينا كتاب الله وقد علمناه أبناءنا ونساءنا؟!! فقال رسول الله ﷺ: «**إن كنت لأظنك من أفقه أهل المدينة**» ثم ذكر ضلالة أهل الكتابين، وعندهما ما عندهما من كتاب الله عز وجل. فلقي جبير بن نفير شداد بن أوس بالمصلى، فحدثه هذا الحديث عن عوف بن مالك فقال: صدق

عوف! ثم قال: وهل تدري ما رفع العلم؟ قال: قلت: لا أدري! قال: ذهاب أوعيته! قال: وهل تدري أي العلم أول أن يرفع؟ قال: قلت: لا أدري!! قال: الخشوع حتى لا تكاد ترى خاشعًا) رواه أحمد ٦/ ٢٦-٢٧ واللفظ له، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ١٣٨، ٢٤٧، وابن حبان (٤٥٧٢)، والطبراني في الكبير ١٨/ ٤٣ رقم (٧٥)، والبزار في "البحر الزخار" رقم (٢٧٤١)، والحاكم ١/ ٩٨-٩٩، والطحاوي في المشكل ١/ ٢٧٨ رقم (٣٠٣) كلهم من طريق إبراهيم بن أبي عَبْلَةَ عن الوليد بن عبدالرحمن عن جبير ابن نُفَيرٍ عن عوف بن مالك.

وهو حديث صحيح صححه العلامة الألباني رحمه الله في "اقتضاء العلم العمل" ص (٥٨) رقم (٨٩)، وشيخنا الوادعي في "دلائل النبوة" ص (٣٦٩).

ورواه الترمذي رقم (٢٦٥٣) والدارمي ١/ ٨٧ والحاكم والطحاوي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «**هذا أوان يختلس العلم من الناس، حتى لا يقدروا منه على شيء**» فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن؟! فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا! فقال: ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟ قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت، قلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟! فأخبرته بالذي قاله أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة، فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا.

وهو حديث حسن. ورواه أحمد ٤/ ١٦٠، وابن ماجه رقم (٤٠٤٨)، وأبو خيثمة في العلم رقم (٥٢)، والحاكم ١/ ٩٩، والطحاوي ١/ ٢٧٩ رقم (٣٠٤) من طريق سالم ابن أبي الجعد عن زياد بن لبيد، وسالم لم يسمع من أبي الدرداء فهو منقطع. وأخرجه البزار كما في "كشف الأستار" رقم (٢٣٥) وفيه زيادة: (ولا يذهب عالم من هذه الأمة إلا كان ثغرة في الإسلام لا تسد إلى يوم القيامة).

وبقيت أحاديث متفرقة سنذكرها في الأماكن المناسبة. فهذه الأحاديث دلت دلالة قطعية على رفع العلم الشرعي، وهذا الرفع إنما وقع تدريجيا شيئًا فشيئًا، حتى يرفع العلم كله؛ فلا يبقى عالم على وجه الأرض، ويسري الرفع بعد ذلك على القرآن؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون!!



الحكمة من إخبار الرسول ﷺ برفع العلم

لا يخفى على من له إدراك بالمقاصد الشرعية أن الحكمة من إخبار النبي ﷺ برفع العلم الشرعي تتضح بالآتي:

١) الإعلام بوقوع ذلك لا محالة.

٢) الدعوة إلى الإقبال عليه، والمسابقة إليه والتنافس فيه، وهذا هو الذي فهمه أهل العلم، السلف فمن بعدهم.

٣) قال العلامة ابن عثيمين في "شرحه رياض الصالحين" ٥/ ٤٥٤ وهو يشرح حديث قبض العلم: (وفي هذا الحديث حث وتأكيد على طلب العلم؛ حتى لا نصل إلى الحال التي وصفها الرسول ﷺ).

قال العلامة ابن عثيمين في "شرح رياض الصالحين" ٥/ ٤٥٤: (والإخبار بالواقع لا يعني إقراره، يعني إذا أخبر الرسول ﷺ عن شيء ليس معناه أنه يقره ويسمح فيه، كما أخبر عليه الصلاة والسلام وأقسم: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم!**» يعني لتركبن طرق من كان قبلكم، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «**نعم اليهود والنصارى**» فأخبر أن هذه الأمة سوف ترتكب ما كان عليه اليهود والنصارى إخبار تحذير، لا إخبار تقرير وإباحة).



رفع العلم على قسمين حسي ومعنوي

بعد أن سردنا الأحاديث الدالة على رفع العلم أذكر هنا أن رفع العلم الشرعي على قسمين: رفع معنوي ورفع حسي.

ورفع العلم الشرعي معنويًا على قسمين: علم القلب وعلم اللسان؛ إذ إن العلم الشرعي نوعان.

قال الحسن البصري: (العلم علمان: علم في القلب، فذاك العلم النافع، وعلم على اللسان فتلك حجة الله على عباده) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٥٣٦٤، والدارمي رقم (٣٧٦) والخطيب في تاريخه ٤/ ٣٤٦، وسنده صحيح.

وقال الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" ٢/ ٢٩٩ وهو يتحدث عن رفع العلم: (العلم قسمان: أحدهما: ما كان ثمرته في قلب الإنسان. الثاني: العلم الذي على اللسان).



أول ما يرفع من العلم من أعمال القلوب وأصول الإيمان دقيقها وخاصها

دلت الأدلة من القرآن والسنة على أن أعمال القلوب أصل لأعمال الجوارح، والأعمال القلبية كثيرة، من حب وتعظيم وخوف وخشية ومراقبة وتوكل وثقة ورضا وخشوع وخضوع وانقياد، ويدل على أن أول ما يرفع من العلم دقيقها أحاديث أن أول ما يرفع من العلم الخشوع والأمانة وهما من أعمال القلوب، والذي يرفع منهما وغيرهما من أعمال القلوب كمالها الواجب لا أصلها، والدقيق منهما كمثل قول الرسول ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري رقم (١٣) ومسلم رقم (٤٥): «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» فإن النفي هنا لكمال الإيمان، لا لأصله.

ومما يدل على هذا الرفع هو أن المسلم لا يزال عنده أمانة وخشوع ما دام الإيمان في قلبه، وأيضًا يدل على هذا أن بداية رفع الخشوع والأمانة حصلت في عصر السلف، وهو عصر العافية في الدين، ولله در الشافعي حيث قال: (من تعلم علما فليدقق؛ لئلا يضيع دقيق العلم) أخرجه البيهقي في "المدخل" رقم (٤١٦). وفي "مناقب الشافعي" له أيضًا ٢/ ١٤٢.

قلت: يتحقق الكمال في الخشوع والأمانة بالتدقيق في العلم والانتفاع به، وبافتقاد الكمال المذكور يدل على عدم التدقيق فيه، وعدم التدقيق في العلم يدل على نقص فيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى" ٧/ ٥٨٢: (وإذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة، بل يلزم من وجود هذا كاملًا وجود هذا كاملًا كما يلزم من نقص هذا نقص هذا؛ إذ تقدير إيمان تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل كتقدير موجب تام بلا موجبه وعلة تامة بلا معلولها، وهذا ممتنع).

وقال أيضًا في المصدر السابق ١٠/ ٥-٦ وهو يتحدث عن أعمال القلوب: (وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل محبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له وما يتبع ذلك... فأقول هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل باتفاق أئمة الدين. والناس فيها على ثلاث درجات، كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات).

قلت: وهذه الأعمال القلبية هي التي تفاوت فيها المؤمنون تفاوتًا كبيرا، فمن عظمت في قلبه هذه الأعمال نال من نصر الله وتأييده وحفظه ورعايته وتوفيقه وهدايته ما لم ينل ذلك من ضعفت أعمالهم القلبية. فالله الله في إحراز العلم في إصلاح القلوب وعمارتها بخشية الله ومراقبته وخوفه وتعظيمه!!



أول ما يرفع من العلم معرفة الله المعرفة الخاصة

معرفة الله المعرفة الخاصة هي: معرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله وبما يحبه ويرضاه ويكرهه ويأباه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فهذه المعرفة تستوجب تعظيم الله ومحبته وخشيته ومراقبته والإقبال عليه والشوق إلى لقائه والإقبال على طاعته.

قال العلامة ابن رجب في "فضل علم السلف على علم الخلف" ص (٦٩): (فأصل العلم بالله الذي يوجب خشيته ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق إليه. ثم يتلوه العلم بأحكام الله وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد، فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه علمًا نافعًا، وحصل له العلم النافع والقلب الخاشع والنفس القانعة والدعاء المسموع. ومن فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي ﷺ، وصار علمه وبالًا وحجة عليه، فلم ينتفع به؛ لأنه لم يخشع قلبه لربه. ولم تشبع نفسه من الدنيا، بل ازداد عليها حرصًا ولها طلبًا. ولم يسمع دعاؤه؛ لعدم امتثاله لأوامر ربه، وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه. هذا إن كان علمه علمًا يمكن الانتفاع به وهو المتلقى عن الكتاب والسنة. فإن كان متلقى من غير ذلك فهو غير نافع في نفسه، ولا يمكن الانتفاع به، بل ضره أكثر من نفعه).

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله في "مفتاح دار السعادة" ١/ ٣١١-٣١٢: (وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها، كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين ومفتقر إليه في تحقق ذاته وأينيته، وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر في تحقق ذاته إليه، فالعلم به أصل كل علم، كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده... فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه فهو في ذاته رب كل شيء ومليكه، والعلم به أصل كل علم ومنشؤه، فمن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل... والمقصود أن العلم بالله أصل

كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به، فالعلم به سعادة العبد، والجهل به أصل شقاوته). اهـ

قلت: فهذه المعرفة عزيزة قلَّ أن يوفق لها العلماء والدعاة فضلًا عن غيرهم؛ فاحرص على إحرازها!! بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "درء تعارض العقل والنقل" ٧/ ١٧٤: (ومنشأ الحق من معرفة الحق والمحبة له، والله هو الحق المبين، ومحبته أصل كل عبادة؛ فلهذا كان أفضل الأمور على الإطلاق معرفة الله ومحبته، وهذا هو ملة إبراهيم خليل الله تعالى الذي جعله الله للناس إماما).

فهذا العلم العظيم هو أول ما يرفع ومنه الخشوع والأمانة وغيرهما كما سيأتي، فإذا رفع هذا العلم صار غالب المتعلمين محرومين من الانتفاع بالعلم الانتفاع الخاص، فيدخل عليهم النقص في علمهم، فيذهب شيئًا فشيئًا، حتى يصير إما علم فخر ورياء وكبر وعُجب وغرور، وإما علما من أجل المال والجاه والثناء، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

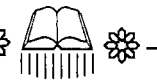

أول ما يرفع من العلم في آخر عصر السلف معرفة الله بأسمائه وصفاته

اعلم -يا عبد الله- أن جناية المعتزلة والجهمية على الإسلام كبيرة؛ لأنهم عمدوا إلى ما خص الله به نفسه من الاتصاف بالكمال والجمال والعظمة، فنفوا ذلك عنه، إما نفيًا لمعاني صفاته وإما نفيا لألفاظها ومعانيها، فبهذا النفي عطلوا أسماء الله وصفاته وهدموا توحيد الأسماء والصفات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "بيان تلبيس الجهمية" ١/ ٣٢٣: (ثم إنه لما عربت الكتب اليونانية في حدود المائة الثانية وقبل ذلك وبعد ذلك وأخذها أهل الكلام وتصرفوا فيها من أنواع الباطل في الأمور الآلهية ما ضل به كثير منهم، وفيها من أمور الطب والحساب ما لا يضر كونه في ذلك، وصار الناس فيها أشتاتًا: قوم يقبلونها، وقوم يحلون ما فيها، وقوم يعرضون ما

فيها على أصولهم وقواعدهم، فيقبلون ما وافق ذلك دون ما خالفه، وقوم يعرضونها على ما جاءت به الرسل من الكتاب والحكمة. وحصل بسبب تعريبها أنواع من الفساد والاضطراب، مضمومًا إلى ما حصل من التقصير والتفريط في معرفة ما جاءت به الرسل من الكتاب والحكمة).

وقال العلامة ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» ٣/ ٣٤٩: (فقعدت المعطلة والجهمية على رأس القاعدة الأولى فحالوا بين القلوب وبين معرفة ربها وسموا إثبات صفاته وعلوه فوق خلقه واستواءه على عرشه تشبيها وتجسيمًا وحشوًا؛ فنفروا عنه صبيان العقول وسموا نزوله إلى سماء الدنيا وتكلمه بمشيئته ورضاه بعد غضبه وغضبه بعد رضاه وسمعه الحاضر لأصوات العباد ورؤيته المقارنة لأفعالهم ونحو ذلك حوادث، وسموا وجهه الأعلى ويديه المبسوطتين وأصابعه التي يضع عليها الخلائق يوم القيامة جوارح وأعضاء مكرًا منهم كبارًا بالناس كمن يريد التنفير عن العسل فيمكر في العبارة ويقول مائع أصفر يشبه العذرة المائعة، أو ينفر عن شيء مستحسن فيسميه بأقبح الأسماء فعل الماكر المخادع، فليس مع مخالف الرسل سوى المكر في القول والعمل. فلما تم للمعطلة مكرهم وسلك في القلوب المظلمة الجاهلة بحقائق الإيمان وما جاء به الرسول ترتب عليه الإعراض عن الله وعن ذكره ومحبته والثناء عليه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، فانصرفت قوى حبها وشوقها وأنسها إلى سواه).

وقال أيضًا في المصدر المذكور ص(٣٥١): (فحقيقة المحبة والإنابة والتوكل ومقام الإحسان ممتنع على المعطل امتناع حصول المغل من معطل البذر، بل أعظم امتناعًا).

وقال ابن رجب في كتابه «فضل علم السلف على علم الخلف» (٤٢): (ومن ذلك -أعني محدثات الأمور- ما أحدثه المعتزلة ومن حذا حذوهم من الكلام في ذات الله وصفاته بأدلة العقول، وهو أشد خطرًا من الكلام في القدر؛ لأن الكلام في القدر كلام في أفعاله تعالى، وهذا كلام في ذاته وصفاته تعالى).



الخشوع أول ما يرفع من دقيق العلم

الخشوع لب الإيمان وروح الإسلام وهو من أعمال القلب، وتظهر آثاره على الجوارح. وقد جاءت الأحاديث الدالة على أن أول ما يرفع من علم القلوب: الخشوع ففي حديث شداد أنه قال لجبير بن نفير: (وهل تدري أي العلم يرفع أول؟ قال: قلت: لا أدري! قال: الخشوع، حتى لا تكاد ترى خاشعًا) تقدم تخريجه قريبًا. وهو صحيح.

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لجبير بن نفير: (لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا) رواه أحمد وغيره. وفيه ضعف، ولكنه يقوى بالشواهد، وقد سبق ذكرها في باب الأحاديث الدالة على رفع العلم.

قال الطحاوي في "مشكل الآثار" ١/ ٢٨١: (والخشوع الذي أراد شداد في هذا الحديث والله أعلم: هو الإخبات والتواضع والتذلل لله عز وجل).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" ٧/ ٢٨: (الخشوع يتضمن معنيين: أحدهما: التواضع والذل. والثاني: السكون والطمأنينة).

وقال العلامة ابن القيم في "مدارج السالكين" ١/ ٥٢٢: (والحق أن الخشوع هو الاستسلام للحكمين: وهو الانقياد بالمسكنة والذل لأمر الله وقضائه).

قلت: المراد بالحكمين: الحكم القدري والديني. وفي حديث رفع الخشوع علَم من أعلام النبوة؛ لأن رفع الخشوع قد تحقق، ولا يزال الخشوع يذهب عن المسلمين شيئًا فشيئًا حتى يذهب بالكلية، ويفتقد في أهم مواطنه وهي الصلاة.

والمراد برفع العلم في الخشوع أن الآيات والأحاديث الواردة في إصلاح القلوب لا تتدبر، فلا يحصل للقلب تأثر بكلام الله وكلام رسوله ﷺ.



الأمانة أول ما يرفع من العلم

مما أخبر النبي ﷺ برفعه: الأمانة التي هي ضد الخيانة، وهي أداء حقوق الله على الوجه الذي شرع، وأداء حقوق العباد على الوجه الذي بيَّنه الله ورسوله ﷺ، فإليك الأحاديث الناطقة بأن الأمانة أول ما يرفع من المسلمين إلا من رحمه الله:

فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا «**أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة**». وحدثنا عن رفعها قال: «**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى فيها أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا. ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**» رواه البخاري رقم (٦٤٩٧) ومسلم رقم (١٤٣).

وأخرج الخرائطي في "مكارم الأخلاق" ١/ ٣٣٨ رقم (١٧٣)، وتمام الرازي في "الفوائد" رقم (٧٠٨)، والبخاري في "التاريخ" ٢/ ١٥٨ والقضاعي في مسند الشهاب رقم (٢١٦) و (٢١٧) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخره الصلاة**». وقد حسنه العلامة الألباني رحمه الله بشواهده في الصحيحة رقم (١٧٣٩).

وأخرجه الطبراني في الكبير ٧/ ٢٩٥ رقم (٧١٨٢) من حديث شداد رضي الله عنه وليس فيه ذكر الصلاة.

تنبيه: حديث أنس المذكور آنفا رواه أبونعيم في "الحلية" ٦/ ٢٦٥ وفي "أخبار أصبهان" ٢/ ١٨٣ بلفظ: (أول ما تفقدون من دينكم: الصلاة) وهو ضعيف جدًّا؛ لأن

يزيد الرقاشي متروك. وهو يخالف الأحاديث الصحيحة أن آخر ما ينقض من عرى الإسلام الصلاة.

وأخرجه الطبراني في «الصغير» ١/ ١٣٨، ومن طريقه أبونعيم في «الحلية» ٢/ ١٧٤ والبيهقي في «الشعب» ٧/ ٢١٥ رقم (٤٨٩٢) عن عمر رضي الله عنه.

وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢١٦) والبيهقي في «الشعب» ٧/ ٢١٦ رقم (٤٨٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «**أول ما يرفع من هذه الأمة الحياء والأمانة**» وأخرجه عبدالرزاق ٣/ ٣٦٣، وابن أبي شيبة ٨/ ٣٤١ رقم (١٤٦)، والخرائطي ١/ ٣٤٣ رقم (١٧٨)، والطبراني في «الكبير» ٩/ ٣٦١، ١٥٣، والبيهقي في «سننه» ٦/ ٢٨٩، وفي «الشعب» رقم (٤٨٩١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» ١٢/ ٨٥، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠٧٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «**أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة**».

والحديث بمجموع طرقه: حسن. وأثر ابن مسعود رضي الله عنه له حكم الرفع.

وقد استنبط العلماء من إخباره عليه الصلاة والسلام برفع الأمانة أن هذا من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام.

قال ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» ٣٢/ ٣٤٥: (وهو من أعلام نبوته؛ لأن فيه الإخبار عن فساد أديان الناس وقلة أمانتهم في آخر الزمان، ولا سبيل إلى معرفة ذلك قبل كونه إلا من طريق الوحي).

قلت: يستفاد من حديث حذيفة رضي الله عنه أن الأمانة تنقص شيئًا فشيئًا؛ فلا ترفع جملة واحدة. ويستفاد منه: أن رفع الأمانة حصل في عهد الصحابة من غير الصحابة، وسيأتي إيضاح هذا قريبًا.

وقد اختلف في رفع الأمانة وقبضها: أهو قبض أهلها فيكون رفعها كرفع العلم، أم أن المراد بذلك رفعها من قلوب أصحابها؟ والذي يظهر أن رفعها يحصل تارة بذهاب أهلها، وتارة بتغيرهم، أما حصوله بذهاب أهلها فكالصحابة فقد ذهبوا وكانوا في

الأمانة في الذروة العليا، وهكذا يحصل في أمناء كل عصر. وأما تغير بعض أهلها فظاهر من أن بعض المسلمين يكون معروفًا بالأمانة، ثم يتغير إما بمسايرة الخائنين فيخون مثلهم، أو بغير ذلك.

وعلى كلٍّ، حال كثير من المسلمين في باب الأمانة في العصور المتأخرة مثلما قال الرسول ﷺ: «**إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا**» وشبك بين أصابعه، قال: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: «**الزم بيتك واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة**» رواه أبو داود رقم (٤٣٤٣). وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٠٥).



عدم الاحتكام إلى سنة النبي ﷺ أول ما يرفع من العلم الظاهر

من الأحاديث الواردة في رفع العلم أحاديث نصت على أن أول ما يرفع من العلم ترك الاحتكام إلى بعض منهاج النبوة.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضًا الحكم، وآخرهن الصلاة**» رواه أحمد ٥/ ٢٥١، والحاكم ٤/ ٩٢، وابن حبان رقم (٦٧١٥)، والطبراني في «الكبير» رقم (٧٤٨٦) والبيهقي في «الشعب» (٥٢٧٧).

وله شاهد من حديث فيروز الديلمي عند أحمد ٤/ ٢٣٢ والدارمي رقم (٢٩٧) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٢٧).

وقد فسر نقض الحكم بترك سنة النبي ﷺ روى الدارمي رقم (٩٨) والفسوي في «المعرفة والتاريخ» ٣/ ٣٨٦، ومن طريقه اللالكائي في «شرح اعتقاد أهل السنة» ١/ ١٠٤ رقم

(١٢٧)، وابن بطة في "الإبانة" ١/ ٣٥٠ رقم (٢٢٩)، وابن وضاح في "البدع والنهي عنها" ص(٦٦) عن عبدالله بن الديلمي قال: (بلغني أن أول ذهاب الدين ترك السنة، يذهب الدين سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة) وسنده صحيح إلى عبد الله.

ونقض الحكم بترك سنة رسول الله ﷺ يظهر جليا فيما خالفت أهواء الناقضين لها، وهو الذي حصل في آخر عهد الصحابة من قبل الفرق والأحزاب، أولهن الخوارج والشيعة السبئية ثم ظهرت القدرية وهلم جرًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٥٦-٣٥٧: (والحكم هو عمل الأمراء وولاة الأمور... فلما ذهبت دولة الخلفاء الراشدين وصار ملكًا ظهر النقص في الأمراء، فلا بد أن يظهر أيضًا في أهل العلم والدين؛ فحدث في آخر خلافة علي بدعتا الخوارج والرافضة؛ إذ هي متعلقة بالأمانة والخلافة وتوابع ذلك من الأعمال والأحكام الشرعية، وكان ملك معاوية ملكًا ورحمة، فلما ذهب معاوية رحمة الله عليه وجاءت إمارة يزيد وجرت فيها فتنة قتل الحسين بالعراق، وفتنة أهل الحرة بالمدنية وحصروا مكة لما قام عبدالله بن الزبير، ثم مات يزيد وتفرقت الأمة: ابن الزبير بالحجاز، وبنو الحكم بالشام، ووثب المختار بن أبي عبيد وغيره بالعراق وذلك في أواخر عصر الصحابة، وقد بقي فيهم مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وغيرهم، حدثت بدعة القدرية والمرجئة فردها بقايا الصحابة كابن عباس وابن عمر وجابر وواثلة بن الأسقع وغيرهم رضي الله عنهم، مع ما كانوا يردونه هم وغيرهم من بدعة الخوارج والروافض. وعامة ما كانت القدرية إذ ذاك يتكلمون فيه أعمال العباد كما يتكلم فيها المرجئة، فصار كلامهم في الطاعة والمعصية والمؤمن والفاسق ونحو ذلك من مسائل الأسماء والأحكام والوعد والوعيد).

فيا من يعز عليك القرآن والسنة، بادر إلى الاحتكام إليهما والحكم بهما وقبول حكمهما لك وعليك، فالله الله -يا أهل السنة- في إحياء السنن التي أماتها الناس بالعلم بها والتطبيق لها والدعوة إليها، وإذا أراد السني أن يعرف صدقه في التمسك

وإخلاصه في الاتباع لمنهاج النبوة فلينظر إلى حاله عند الاختلاف مع الناس أيكون الحق مقدمًا عنده ولو خالف بعض مصالحه وعاداته. وأيضًا إذا كان الحكم الشرعي مع خصمك هل تقبله أم لا؟ وإذا كان التخاصم مع شخص محق ولكنه بعيد والآخر مخالف وهو قريب فانظر هل سيكون إنصافك للمحق ولو كان غير معروف أم ستنتصر لقريبك؟ ووجه رفع العلم هنا هو بسبب عدم معرفة الدليل أو عدم معرفة معناه أو عدم العمل به.

إشكال وجوابه

قد يقول قائل: كيف الجمع بين هذه الأحاديث الناطقة بثلاث أولويات في رفع العلم: رفع الأمانة، والخشوع، والحكم؟

والجواب: لا تعارض بينها؛ لأن كل رفع يختلف عن الآخر، فرفع الخشوع هو أظهر في عبادة الله، ورفع الأمانة أظهر في التعامل مع الخلق، وكلاهما من أعمال القلوب، ورفع الحكم هذا في الظاهر للمسلمين، بخلاف رفع الأمانة والخشوع فلا يظهر أثرهما على الجوارح إلا نزرًا. ونستفيد من رفع الأمانة والخشوع أن رفع العلم من القلب مقدم على رفعه من الجوارح.



بداية رفع العلم بعد موت الرسول ﷺ

استشكل بعض العلماء قول الرسول ﷺ «**هذا أوان يختلس فيه العلم**» فظن بعضهم أن رفع العلم حصل في عهده ﷺ.

قال الطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٢٨٠-٢٨١ مجيبًا عن إشكال رفع العلم في زمان النبوة: (فكان جوابنا له في ذلك: أن هذا الحديث من أحسن الأحاديث وأصحها، وأن الذي فيه من نظر النبي ﷺ إلى السماء ومن قوله عند ذلك: «هذا

أوان يرفع فيه العلم» إنما هو إشارة منه إلى وقت يرفع فيه العلم، قد يجوز أن يكون هو وقت يكون بعده؛ لأن هذا إنما هو كلمة يشار بها إلى الأشياء، من ذلك قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣] ليس هم فيه يوم أنزل ذلك على رسول الله ﷺ، ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق:٣٢] ليس على شيء مرئي يوم قيل لهم ذلك، في أمثال لهذا كثيرة في القرآن فمثل ذلك ما في حديث عوف قد يحتمل أن يكون رسول الله ﷺ لما نظر إلى السماء أري فيها الزمان الذي يرفع فيه العلم فقال ما قال من أجل ذلك).

قلت: الأدلة كثيرة على أن رفع العلم إنما حصل بعد موت رسول الله ﷺ ومنها:

١) استمرارية زيادة العلم في عهد الرسول ﷺ.

٢) اكتمل الإسلام بنزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] في حجة الوداع ومات الرسول ﷺ بعد ذلك بمدة قصيرة. وفي هذه المدة القصيرة استمر الوحي يتنزل على الرسول ﷺ بالسنة النبوية إلى أن مرِض مرَض الموت، بل إلى سكرات الموت، قال أنس رضي الله عنه: (كان عامة ما أوصى به الرسول عند اشتداد وجعه: الصلاة، وما ملكت أيمانكم) رواه ابن ماجه (٢٦٩٧) وجاء عن علي رضي الله عنه برقم (٢٦٩٨) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٢١٧٨) وغيرها من الأحاديث التي فيها آخر ما تكلم به النبي ﷺ كذا وكذا.

٣) ويدل أيضًا على عدم وقوع الرفع في عهده قوله ﷺ: « **النجوم أَمَنَةٌ للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت جاء أصحابي ما يوعدون**» رواه مسلم رقم (٢٥٣١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. فتقييده مجيء ما يوعد به الصحابة بذهابه وموته يدخل في ذلك رفع العلم.

٤) الأحاديث التي أخبر فيها النبي ﷺ عن الفتن في أمته -وهي كثيرة- دالة على أن ذلك بعد موته، ومنها الفتن التي جرت بين الصحابة، فهي مقيدة بعصرهم.

٥) الصحابة لم يفهموا من قول الرسول ﷺ: «**هذا أوان يختلس فيه العلم**» أنه يحصل في عصره حين أخبر بذلك، وهم الحجة في الفهم؛ لأنهم أدرى بالمقال وأعلم بالحال.

٦) بعض الصحابة بكوا بعد موت الرسول ﷺ على انقطاع الوحي بموته ومنهم أبو بكر وعمر وأم أيمن وقالوا: (الوحي قد انقطع) عن أنس رضي الله عنه عند مسلم (٢٤٥٤) فهذا دليل على أنهم لا يرون رفع العلم قبل موت الرسول ﷺ.

٧) بعض الأحاديث الواردة في رفع العلم وقبضه نصت على أن قبضه بقبض العلماء والصحابة أجل حملة العلم وهم كُثُرٌ، ومعلوم أن المراد قبضهم بعد موت الرسول ﷺ في أوقات مختلفة لا في حياته.

وبالجملة: فهذه البنود كافية في الدلالة على أن رفع العلم لم يحصل في عهد الرسول ﷺ قط وأن القول بحصوله في عهده باطل، وأن قول الرسول ﷺ «**هذا أوان يختلس فيه العلم**» لا يلزم منه أنه في حين التكلم، والله أعلم.



هل رفع شيء من العلم في عصر الصحابة؟

لقد جعل الله الصحابة أمنة لمن بعدهم من الفتن والضلالات، وما هذا إلا سبب ما هم عليه من كثرة العلم الشرعي والعمل بمقتضاه، روى مسلم رقم (٢٥٣١ عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «... **وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**».

قال النووي في شرح صحيح مسلم ٦٨/١٦ في قوله: (وأصحابي أَمَنة...) الخ: (معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك. وهذه كلها من معجزاته ﷺ). ومثلما قال النووي، قال عامة شراح صحيح مسلم.

فهذا الحديث وأمثاله يدل على ما وضعه الله في الصحابة من خير وبركة وعزة ورفعة وأمان وسعة في نصرة الإسلام وحفظه. ولنضرب أمثلة تدل على أن الصحابة حفظ الله بهم الإسلام ونشره وأظهره في ربوع الأرض، وأصلح الله بهم الأحوال، وأذهب بهم الفتن الكبرى والحوادث العظمى فهاهو أبو بكر الصديق يتولى الخلافة بعد موت رسول الله ﷺ ويقول: (لست تاركًا شيئًا كان رسول الله يعمل به إلا عملت به؛ فإني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ) رواه البخاري رقم (٣٠٩٣) واللفظ له ومسلم رقم (١٧٥٩).

وهو القائل: (والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها) رواه البخاري رقم (١٤٠٠) ومسلم رقم (٢٠) وقتال أبي بكر لأهل الردة وتاركي الصلاة ومانعي الزكاة حتى ردهم إلى الإسلام، أمر معلوم.

وهاهو عمر رضي الله عنه جعله الله حصنًا منيعًا من الفتن حتى اشتهر عند المسلمين أنه قُفْلُ الفتن، بل صح ذلك عن غير واحد من الصحابة، ومن ذلك ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كان عمر للإسلام حصنًا حصينًا يدخل فيه ولا يخرج منه. فلما قتل انثلم الحصن) رواه عبدالرزاق في المصنف ٧/ ٢٩٠ رقم (١٣٢١٥) وابن أبي شيبة ٦/ ٣٥٤ رقم (٣١٩٧٧) وأحمد في فضائل الصحابة ١/ ٣٣١ رقم (٣٥٦) وهو صحيح.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: (ما بينكم وبين أن يرسل عليكم الشر فراسخ إلا موتة في عنق رجل يموتها وهو عمر) رواه ابن أبي شيبة ١٤/ ٦٥ رقم (٣٨٢٨٦) واللفظ له رقم (٨٥) والروياني ٣/ ١٠٧ ونعيم بن حماد ١/ ٤٢، وسنده صحيح.

وأيضًا عثمان بن عفان رضي الله عنه صبر على فتنة عبد الله بن سبأ وخروجه عليه، ومنع الصحابة من مواجهته حتى قُتل، وما هذا إلا سدًّا لأبواب الفتن، فمن يقدر على هذا الصبر؟!

وهاهو علي رضي الله عنه قاتل الخوارج ومعه الصحابة وأحرق كثيرا من السبئية، وهذا أيضًا محافظة على الإسلام ودحرًا للبدع والضلالات.

ولا تنس ما قام به الحسن بن علي من تنازل عن الخلافة طاعة لرسول الله

ﷺ، فعلى إثر هذا التنازل اجتمعت كلمة المسلمين واستتب الأمن، وعادت قوة المسلمين وواصلوا الجهاد في سبيل الله.

ومعلوم أن الله أبلى بالصحابة بلاء حسنًا؛ فكان لهم السبق إلى كل فضيلة والإقبال على كل خير، والقيام بالإسلام علما وعملاً، والقيام بالدعوة إليه والدفاع عنه، باذلين أموالهم ومقدمين أنفسهم في سبيل الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى" ٣/ ١٥٦: (ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما مَنَّ الله عليهم به من الفضائل، علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله).

فلله درهم وعلى الله أجرهم ومن الله شكرهم، وعلى أمة الإسلام الاعتراف بحقهم والثناء عليهم وما حصل بين بعض الصحابة في خلافة علي رضي الله عنه فلم يكن هذا إلا سبب فتنة ابن سبأ في قتل عثمان، فلم تكن هذه الفتنة من أجل دنيا أو جاه أو ملك فضلاً عن أن تكون لغرض الابتداع في الدين، كما أوضحت ذلك في رسالتي "قتال الفتنة" فهذا الذي حصل منهم مغمور في كثرة حسناتهم.

وعلى هذا: فلا يطلق رفع العلم في عصر الصحابة. وإن كان ولابد من رفع شيء من ذلك فهو قليل في الدقيق منه. في آخر عصر الخلافة الراشدة عند حدوث الفتن.



رفع العلم في عهد التابعين

إن عصر التابعين هو عصر عافية وخيرية، بشهادة الرسول ﷺ له بقوله في الحديث المتواتر: « **خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم...**» رواه البخاري رقم (٢٦٥٢) ومسلم رقم (٢٥٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد جاء عن صحابة آخرين. وقد حدث رفع شيء من العلم في عهد التابعين، ظهر ذلك في أمور نجملها في الآتي:

١) **تأخير بعض الصلوات عن أوقاتها من قبل بعض الأمراء** ومن اقتدى بهم. روى البخاري رقم (٥٣٠) عن ابن شهاب يقول: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟! فقال: (لا أعرف شيئًا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت!).

وعن الأعمش قال: سمعت سالمًا قال: (سمعت أم الدرداء رضي الله عنها تقول: دخل عليَّ أبوالدرداء وهو مغضب فقلت: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف من أمة محمد ﷺ شيئًا إلا أنهم يصلون جميعًا!) أخرجه البخاري رقم (٦٥٠)، وأحمد في مسنده ٥/ ١٩٥ و ٦/ ٤٤٣، وابن وضاح في البدع والنهي عنها رقم (١٩٦).

وروى مسلم رقم (٥٣٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه ستكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن ميقاتها ويخنقونها إلى شرق الموتى. فإذا رأيتوهم قد فعلوا ذلك فصلوا الصلاة لميقاتها، واجعلوا صلاتكم معهم سبحة**» وقد جاء هذا عن معاذ بن جبل والبراء وأبي ذر رضي الله عنهم عند مسلم رقم (٦٤٨)، وعبادة بن الصامت رضي الله عنه عند ابن ماجه (١٢٥٧)، وقبيصة بن وقاص رضي الله عنه عند الطبراني في الأوسط ٣/ ١٠٢-١٠٣ رقم (٢٦٢٣) وغيرهم.

وهذه الأحاديث واضحة أنه حصل في عصر التابعين تساهل في أداء الصلاة، وهذا رفع لعلم الخشوع والأمانة في العبادة والمحافظة عليها. ويستفاد من هذه الأحاديث أن ترك الصلاة لم يكن حاصلاً في عهد التابعين، وإنما التساهل بها.

٢) ظهور أهل البدع والأحزاب ومنهم الخوارج والسبئية. وكان ظهورهما في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم ظهر معبد الجهني القدري في آخر عصر بقية الصحابة. ولكن هؤلاء المبتدعة لم يكن لهم قبول في المجتمع وإنما يتخطفون بعض الأفراد. فكون ظهورهم في آخر عصر الصحابة لا يسوغ أن يقال: إن رفع العلم حصل في الصحابة؛ لأن هؤلاء في عصر التابعين.

٣) تحويل الخلافة الراشدة إلى ملك، وتحويل الشورى في اختيار الخليفة إلى

وراثة، وهذا الأمر معلوم حصوله في عهد خلفاء بني أمية لا يحتاج إلى نقل.

٤) ظهور القتال على الملك، كما حصل بين عبدالله بن الزبير وعبدالملك بن مروان، وبسبب هذا القتال احترقت الكعبة، ومُنع بسبب ذلك الناس من حج بيت الله الحرام.

ومع ما ذكرنا من هذه الأحداث في عصر التابعين، فلا يفهم أن الخير في عصرهم قليل بل هو كثير، فلعل هذه التي حصلت وأمثالها داخلة في قول أنس ﷺ: (إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات) رواه البخاري رقم (٦٤٩٢).

ومثله عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند أحمد ٣/ ٣ وعن عبادة بن قرط ﷺ أنه قال مخاطبًا بعض التابعين: (إنكم لتعملون أعمالًا هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها في عهد رسول الله ﷺ من الموبقات) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٧٩، وابن المبارك في الزهد رقم (١٨١)، والبيهقي في الشعب ٥/ ٤٥٤ رقم (٧٢٥٩)، وسنده صحيح.

الأحاديث الدالة على رفع العلم حتى لا يبقى إلا علم اللسان

لقد أطلع الله رسوله ﷺ على تغير حال المسلمين؛ بسبب رفع العلم منهم شيئًا فشيئًا، ومن ذلك: ما جاء عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **سيأتي على أمتي زمان تكثر فيه القراء ويقل الفقهاء ويقبض العلم ويكثر الهرج**» قالوا: وما الهرج؟ قال: « **القتل بينكم، ثم يأتي بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال من أمتي لا يجاوز تراقيهم، ثم يأتي بعد ذلك زمان يجادل المنافق الكافر المشرك بالله المؤمن بمثل ما يقول**» أخرجه الحاكم ٤/ ٤٥٧ واللفظ له، والطبراني في الأوسط ٤/ ١٧١ رقم (٣٣٠١)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٠٧ رقم (١٠٤٣). وهو

حديث حسن.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن ما أخوف عليكم رجل قرأ القرآن. حتى إذا رئيت بهجته عليه وكان ردءًا للإسلام، غيره إلى ما شاء الله فانسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك**» قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك المرمي أم الرامي؟ قال: « **بل الرامي**» أخرجه ابن حبان رقم (٨١) والبزار كما في "البحر الزخار" ٧/ ٢٢٠ رقم (٢٧٩٣) وأبو يعلى كما في تفسير ابن كثير والبخاري في التاريخ ٤/ ٣٠١ وحسن إسناده الهيثمي في المجمع ١/ ١٧٨ وجوده ابن كثير في تفسيره ٦/ ٤٥٢. قلت: وهو كما قال. وقد قال العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (٣٢٠١): (فالحديث حسن إن شاء الله تعالى؛ لأن له شواهد في الجملة).

وعن أبي وائل قال: سمعت ابن مسعود يقول: (هل تدرون كيف ينقص الإسلام؟ قالوا: كيف؟ كما ينقص الدرهم عن طول الخبت، وقد يكون في القبيلة عالمان فيموت أحدهما فيذهب نصف علمهم، ويموت الآخر فيذهب علمهم كله) أخرجه الآجري في "اختلاف العلماء" ص (٢١) وإسناده صحيح.



بداية ظهور رفع علم اللسان

سبق أن ذكرنا أن بداية رفع علم القلب حصلت بعد موت الرسول ﷺ في عهد السلف، ولا يزال هذا الرفع يزداد إلى أن يظهر رفع علم اللسان، وهنا أذكر بداية رفع علم اللسان فأقول:

بداية رفع علم اللسان ظهر في آخر عصر السلف، وكان ظهوره على أيدي فرق منحرفة وأحزاب مضلة؛ وذلك بإقبالها على علوم الكفار، خاصة فلسفة الوثنيين اليونان، وكان هذا الظهور في عصر الخليفة العباسي المأمون فهو الذي استقدم كتب الفلسفة وغيرها، وقام بتعريبها وشغف بها.

وأشهر هذه الفرق والأحزاب: الجهمية والمعتزلة ثم الأشعرية، وقد جعلت هذه الفرق والأحزاب علوم الفلاسفة أصولها المعتمدة في أعظم أصول الإسلام ومبانيه العظام: العقيدة والإيمان. ولم يقف الانحراف في هذه الفرق المذكورة بل لجأت الرافضة الإمامية الإثنا عشرية والرافضة الزيدية والخوارج إلى تلقي الإيمان والعقيدة من المعتزلة، كما أوضحنا هذا في كتابنا "رافضة اليمن على مر الزمن"، ناهيك عن الفرق الإسماعيلية الباطنية التي تتظاهر بالرفض وهي على الكفر المحض! أضف إلى ذلك ظهور الأشعرية وهي من الفرق الكلامية، والصوفية التي اتجهت إلى هجْر العلم الشرعي وأقبلت على علم الخرق، وأقامت بعد ذلك الموالد المبتدعة وأحيت بدع القبور، ونعشت وسائل الشرك والخرافة.

فهذه الفرق انتشر شرها وطار شررها في القرن الرابع الهجري، وتكالبت على المسلمين ونالت منهم في مجالات شتى كان أخطر ذلك النيل من عقيدتهم وعبادتهم، واستمرت هذه الفرق تعيث فسادًا على مر التاريخ، ولا تزال متواجدة إلى الآن، تارة تنتعش وتارة تنكمش.

وهذه الفرق تتعلم من علم اللسان الشرعي لمحاجَّته بعلوم الفلسفة والتبصر في رده وإبطاله أو خلطه ومزجه بعلوم الكفار، وهذا من رفع العلم، ولا يزال هذا الرفع حتى يرفع القرآن والسنة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فيا أيها السني، احذر أن تشارك هذه الفرق والأحزاب في رفع العلم وإظهار الجهل، بل أقبل على العلم؛ حتى تكون قوة لإخوانك ومنقذا لمجتمعك ومصلحًا في أمتك، فإياك إياك والتقاعس عن هذا؛ فإن الأمر جد والوقت قصير والعمر ذاهب والدنيا زائلة!!

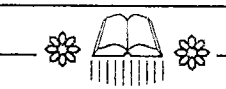

رفع كثير من علم القلب وعلم اللسان بسبب التمذهب

اعلم أن المسلمين كانوا على السنة في عصر السلف، ثم طرأ عليهم التحول عنها إلى التمذهب والتعصب شيئًا فشيئًا. أما كونهم على السنة فهاهي أقوال أهل العلم متكاثرة في إثبات ذلك:

ذكر أبو منصور عبد القادر بن طاهر التميمي البغدادي في كتاب "أصول الدين" ٣١٧/١ أن ثغور الروم والجزيرة والشام وأذربيجان كل أهلها كانوا على مذهب أهل الحديث، وكذلك ثغور إفريقية والأندلس وكل ثغر وراء بحر المغرب، وكذلك ثغور اليمن على ساحل الزنج كان أهلها أهل الحديث.

وفي الخطط والآثار للمقريزي ٣٣٣/٢: (كانت إفريقية الغالب عليها السنن والآثار. وذكره أيضًا ابن حزم في الرسائل إلى أن تولى القاضي أسد فسادت الحنفية، وبعده المعز بن باديس الذي أجبر على المالكية).

وقال الشهرستاني في الملل ٩٨/١: (كان الشافعي وأصحابه وتلامذته من أهل الحديث، وكان سفيان الثوري من أهل الحديث، وكذلك داود بن علي بن محمد الأصفهاني الظاهري).

وقال أيضًا في المصدر نفسه ٤٧/١: (كان أحمد من أصحاب الحديث، وكذلك أصحابه). نقلًا من "قدم أصحاب الحديث" للمحدث عبدالحق الهاشمي المطبوع ضمن رسائله ص (٥٦-٥٨).

فهذه النقولات واضحة في أن المسلمين في عصر السلف كانوا على السنة وعلى ما كان عليه أهل الحديث من اعتمادهم الكلي على ما جاء به الرسول ﷺ علما وعملًا، ثم طرأ التحول عليهم شيئًا فشيئًا حتى كثر فيهم الابتداع. ولا يزال التباعد عن اتباع

منهاج النبوة مستمرًا فيهم، بل ومتزايدا على مر العصور! وعن طريق التمذهب انتشرت البدع والضلالات العقدية في كثير من أرباب المذهب؛ بسبب أن أهل البدع تمذهبوا في الفروع، وبقوا على عقائدهم في الأصول المنحرفة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "منهاج السنة النبوية" ٥/ ٢٦١: (وكذلك أهل المذاهب الأربعة وغيرها لا سيما وكثير منهم قد تلبس ببعض المقالات الأصولية، وخلط هذا بهذا فالحنبلي والشافعي والمالكي يخلط بمذهب مالك والشافعي وأحمد شيئًا من أصول الأشعرية والسالمية، وغير ذلك ويضيفه إلى مذهب مالك والشافعي وأحمد، وكذلك الحنفي يخلط بمذهب أبي حنيفة شيئًا من أصول المعتزلة والكرامية والكلابية ويضيفه إلى مذهب أبي حنيفة). وهذا التحول إلى البدع والضلالات. وإلى الله المشتكى.

الأحاديث الواردة في افتراق أمة الإسلام إلى فرق وأحزاب حتى تصير اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار، والأحاديث الواردة في تغير أحوال المسلمين بظهور المعاصي، ومنها: ما رواه البخاري رقم (٢٦٥١) ومسلم رقم (٢٥٣٥) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**». قال عمران: لا أدري أذكر ﷺ بعد قرنه قرنين أو ثلاثة. قال النبي ﷺ: «**إن بعدكم قوما يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن**».

وروى البخاري رقم (٦٤٣٤) عن مرداس الأسلمي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**يذهب الصالحون الأول فالأول، ويبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله باله!**».

فتقرر من هذا أن رفع العلم في العصور المتأخرة متحقق في علمي القلب واللسان. ولا يزال هذا الرفع يزيد ويكثر إلى أن يرتفع علم القلب واللسان بالكلية؛ نسأل الله السلامة والعافية!!



حصول رفع العلم من كل العلوم الشرعية في العصور المتأخرة

علوم الشريعة الإسلامية كثيرة أمهاتها علم العقيدة وعلم العبادة وعلم الحلال والحرام. فهذه العلوم حصل الرفع منها تدريجيًا، وظهر ذلك جليًا بعد عصر السلف، حيث نفقت ضلالات أهل البدع وانطلت على كثير من المسلمين شهوات أهل الزيغ، وقُبل التمذهب والتعصب، وقد نص على هذا الرفع غير واحد من العلماء.

قال الحافظ ابن حجر، كما في "الجواهر والدرر" ١/ ٨٧: (لا شك أن نقص الاشتغال بكل علم قد وقع بكل قطر لكن حظ هذا العلم الشريف من هذا النقص أزيد؛ وذلك أن كثيرًا من البلاد الإسلامية قد خلت عمن يحققه رواية، فضلًا عن الدراية، وما ذلك إلا لركونهم إلى التقليد وقصور هممهم عن محاولة ما يحصل درجة الاجتهاد، ولو في بعض دون بعض).

بل قال الذهبي في "السير" ١٠/ ١٣٤: (واليوم فلا علم ولا عبادة، بل تخبيط ولحن، وتصحيف كثير، وحفظ يسير، وإذا لم يرتكب العظائم، ولا يخل بالفرائض، فلله دره).

وقال أيضًا في "تذكرة الحفاظ" ١/ ٥٣٠: (فلقد تفانى أصحاب الحديث وتلاشوا وتبدل الناس بطلبة يهزأ بهم أعداء الحديث والسنة ويسخرون منهم، وصار علماء العصر في الغالب عاكفين على التقليد في الفروع من غير تحرير لها ومكبين على عقليات من حكمة الأوائل وآراء المتكلمين من غير أن يتعقلوا أكثرها؛ فعم البلاء واستحكمت الأهواء ولاحت مبادئ رفع العلم وقبضه من الناس، فرحم الله امرأً أقبل على شأنه وقصر من لسانه، وأقبل على تلاوة قرآنه وبكى على زمانه وأدمن النظر في الصحيحين وعبد الله قبل أن يبغته الأجل).

قلت: فالعلوم الشرعية في نقص باستمرار وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: « **لا**

يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه!» رواه البخاري رقم (٧٠٦٨) من حديث أنس ﷺ. والنقص المذكور هو في الناس لا في نفس العلم الشرعي -القرآن والسنة- فرفع العلم في عصرنا أكثر مما سبق، وهكذا يكون بعد عصرنا أكثر، حتى تنطمس البصائر بالكلية؛ فهل من مشمر؟ يقبل على العلم ليحيي الله به قلوبًا غلفًا وآذانًا صمًّا وأعينًا عميًا، ويحيي علم الرواية والدراية وينعش العلم ولو في برهة من الزمن؟!

وأما بقية العلوم كعلم الطب والأنساب وغير ذلك فقد ضيع المسلمون ما ضيعوا منها، وعلى سبيل المثال: علم الطب روى البيهقي في مناقب الشافعي عن حرملة قال: (كان الشافعي يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول: ضيعوا ثلث العلم، ووكلوه إلى اليهود والنصارى). نقلًا من «سير أعلام النبلاء» ١٠/ ٥٧.

وقال صالح جزرة: (سمعت الربيع يقول: سمعت الشافعي يقول: لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من علم الطب، إلا أن أهل الكتاب غلبونا عليه). نقلًا من المصدر السابق.



رفع العلم حتى تكون أكثر أعمال المسلمين على جهل

إذا رفع العلم بذهاب العلماء وانحرف من جاء بعدهم من العلماء أقبل كثير من المسلمين على العبادات بجهل، ظانين أن مجرد فهمهم لما يسمعون من كلام الله وكلام رسوله كاف في معرفة الإسلام، ومتكئين على التقليد للآباء وغيرهم، وهذا الحال قد أخبر به الصادق المصدوق، فعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: «**يأتي على الناس زمان يجتمعون ويصلون في المساجد، وليس فيهم مؤمن**» أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان ص (٣٣) رقم (١٠١).

وفي المصنف رقم (٣٠٨٧٠) والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٤٢ والآجري في الشريعة رقم (٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢) قال العلامة الألباني في تحقيقه لكتاب الإيمان لابن أبي

شيبة: (إسناده موقوف صحيح على شرط الشيخين). قلت: والمعنى والله أعلم: أن المراد يكثر في هؤلاء المصلين النفاق؛ بسبب الجهل.

فهذا الجهل المدقع سببه قلة علماء أهل السنة، وكثرة المتصدرين للتعليم وليسوا أهلا لذلك!!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **سيأتي على أمتي زمان يكثر القراء، ويقل الفقهاء، ويقبض العلم**» أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٤٥٧ وقال: صحيح الإسناد، وسكت عليه الذهبي. وأخرجه الطبراني في الأوسط ٣/٣١٩ رقم (٣٢٧٧) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/٦٠٧ رقم (١٠٤٣)، وهو حديث حسن.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال لإنسان: (... سيأتي من بعدكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه كثير سؤَّاله، قليل معطوه) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" رقم (٧٨٩) واللفظ له وعبدالرزاق في "المصنف" رقم (٣٧٨٧) وأبو خيثمة في العلم رقم (١٠٩) والطبراني في "الكبير" رقم (٨٥٦٦-٨٥٦٧). قال الحافظ في "الفتح" ١٠/٥١٠: (وسنده صحيح). وصححه الألباني في "صحيح الأدب المفرد". ومثله لا يقال من قبل الرأي. وقد رواه مالك في "الموطإ" وغيره منقطعًا، والعبرة بالاتصال.

فيا أهل السنة، أقبلوا على العلم النافع لتسدوا الثغرات وتنشروا الخيرات وتحموا عقائد المسلمين وأعمالهم وتصححوا سيرهم.

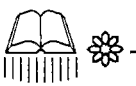

رفع العلم حتى استحكم هجران النصوص

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: « **يأتي على الناس زمان يغربلون فيه غربلة يبقى منهم حثالة قد مرجت عهودهم وأماناتهم**

واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابعه قالوا يا رسول الله فما المخرج من ذلك قال تأخذون ما تعرفون وتدعون ما تنكرون وتقبلون على أمر خاصتكم وتدعون أمر عامتكم » رواه أحمد ٢/ ٢٢٠ وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة رقم (٢٠٥).

قال ابن العلامة ابن القيم في كتاب «إعلام الموقعين» ٤/ ١٧٠-١٧١: (ولما استحكم هجران النصوص عند أكثر أهل الأهواء والبدع كانت علومهم في مسائلهم وأدلتهم في غاية الفساد والاضطراب والتناقض... أما أصول دينهم فصرحوا في كتبهم أن قول الله ورسوله لا يفيد اليقين في مسائل أصول الدين وإنما يحتج بكلام الله ورسوله فيها الحشوية والمجسمة والمشبهة وأما فروعهم فقنعوا بتقليد من اختصر لهم بعض المختصرات التي لا يذكر فيها نص عن الله ولا عن رسول الله ﷺ ولا عن الإمام الذي زعموا أنهم قلدوه دينهم بل عمدتهم فيما يفتون ويقضون به وينقلون به الحقوق ويبيحون به الفروج والدماء والأموال على قول ذلك المصنف وأجلهم عند نفسه وزعيمهم عند بني جنسه من يستحضر لفظ الكتاب ويقول هكذا قال وهذا لفظه فالحلال ما أحله ذلك الكتاب والحرام ما حرمه والواجب ما أوجبه والباطل ما أبطله والصحيح ما صححه هذا. وأنى لنا بهؤلاء في مثل هذه الأزمان فقد دفعنا إلى أمر تضج منه الحقوق إلى الله ضجيجًا وتعج منه الفروج والأموال والدماء إلى ربها عجيجًا، تبدل فيه الأحكام ويقلب فيه الحلال بالحرام ويجعل المعروف فيه أعلى مراتب المنكرات، والذي لم يشرعه الله ورسوله من أفضل القربات، الحق فيه غريب وأغرب منه من يعرفه وأغرب منهما من يدعو إليه وينصح به نفسه والناس).

وقال الحافظ في الفتح ١٣/ ١٦ وهو يتحدث عن رفع العلم: (والمراد من الحديث استحكام ذلك حتى لا يبقى مما يقابله إلا النادر، وإليه الإشارة بالتعبير بقبض العلم فلا يبقى إلا الجهل الصرف، ولا يمنع من ذلك وجود طائفة من أهل العلم؛ لأنهم يكونون حينئذ مغمورين في أولئك). وذكر حديث اندراس الإسلام.

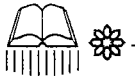

بعض أهل البدع يطالبون برفع العلم

انحرافات أهل البدع والتحزب لا تقف عند حد، بل هي إلى التمدد والتوسع والإيغال في الباطل أكثر، ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال كما في "مجموع الفتاوى" ٨/ ٤٢٥: (البدع تكون في أولها شبرًا، ثم تكثر في الأتباع حتى تصير أذرعًا وأميالًا وفراسخ).

ومما وصلوا إليه: المطالبة تصريحًا بترك ما خالف أهواءهم من الحق، ولو قدروا على دفنه وإخفائه من على وجه الأرض لفعلوا، ولكن يردهم عن ذلك العجز.

ومما اشتهر عن بعضهم ما ذكره ابن أبي العز في "شرح العقيدة الطحاوية" ١/ ١٢١ قائلًا: (حتى أفضى هذا الضلال ببعضهم، وهو أحمد بن أبي دُؤَادٍ القاضي، إلى أن أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، حرف كلام الله لينفي وصفه - تعالى - بأنه السميع البصير!! كما قال الضال الآخر جهم بن صفوان: وددت أني أحك من المصحف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] فنسأل الله العظيم السميع البصير أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة بمنه وكرمه).

وقال الذهبي في "السير" ١٠/ ٤٥٥: (قال أحمد بن حنبل: أخبرني رجل من أصحاب الحديث أن يحيى بن صالح قال: لو ترك أصحاب الحديث عشرة أحاديث -يعني هذه التي في الرؤية- ثم قال أحمد: كأنه نزع إلى رأي جهم. قلت: والمعتزلة تقول: لو أن المحدثين تركوا ألف حديث في الصفات والأسماء والرؤية، والنزول لأصابوا. والقدرية تقول: لو أنهم تركوا سبعين حديثا في إثبات القدر. والرافضة تقول: لو أن الجمهور تركوا من الأحاديث التي يدعون صحتها ألف حديث لأصابوا. وكثير من ذوي الرأي يردون أحاديث شافه بها الحافظ المفتي المجتهد أبو هريرة رسول

الله ﷺ ويزعمون أنه ما كان فقيها، ويأتوننا بأحاديث ساقطة، أو لا يعرف لها إسناد أصلًا محتجين بها!! قلنا: وللكل موقف بين يدي الله تعالى. يا سبحان الله! أحاديث رؤية الله في الآخرة متواترة، والقرآن مصدق لها؛ فأين الإنصاف؟!).

وقال عبد الرحمن بن أحمد بن الحسين النيسابوري الشيعي، كما في "لسان الميزان" ٣/ ٤٠٥: (لو كان لي سلطانٌ يشد على يدي لأسقطت خمسين ألف حديث يعمل بها ليس لها أصل ولا صحة. قال الذهبي في تاريخ الإسلام: هذا الكلام كلام من في قلبه غِلٌّ على الإسلام، وأهله وكان غاليًا في التشيع).

وقال العلامة ابن القيم في "الصواعق المرسلة" ٣/ ١٠٣٩-١٠٤٠: (ولهذا تجد كثيرا من هؤلاء لا يحب تبليغ النصوص النبوية أو إظهارها وإشاعتها، وقد يشترطون في أماكن يقفونها أن لا يقرأ فيها أحاديث الصفات. وكان بعض متأخريهم وهو أفضلهم عندهم كلف بإعدام كتب السنة المصنفة في الصفات وكتمانها وإخفائها. وبلغني عن كثير منهم أنه كان يهم بالقيام والانصراف عند ختم صحيح البخاري وما فيه من التوحيد والرد على الجهمية، وسمع منه الطعن في محمد بن إسماعيل، وما ذنب البخاري وقد بلغ ما قاله رسول الله ﷺ ؟! وقال آخر من هؤلاء: لقد شان البخاري صحيحه بهذا الذي أتى به في آخره. ومعلوم أن هذه مضادة صريحة لما يحبه الله ورسوله من التبليغ عنه حيث يقول: « **ليبلغ الشاهد الغائب**». اهـ أخرجه البخاري رقم (١٧٤١) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وإذا استطاع أهل الضلال إحراق كتب فعلوا، وممن عرف بهذا الإجرام إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية عام ٩٠٥هـ قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه "نزهة الناظرين" وهو يتحدث عن جرائم إسماعيل الصفوي: (وكان عسكره يسجدون له ويأتمرون بأمره، وكان يَدَّعِي الربوبية، وقتل العلماء، وأحرق كتبهم، ونبش قبور المشايخ من أهل السنة، وأخرج عظامهم وأحرقها، وكان إذا قتل أميرًا أباح زوجته وأمواله لشخص آخر) إلى آخر ما ذكر. نقلًا من كتاب "الدولة الصفوية وآثارها على

العالم الإسلامي" ص (٢١).

وما أشبه الليلة بالبارحة! فهاهي رافضة اليمن تطالب بإغلاق دور الحديث في اليمن، وما ذنب دور الحديث إلا أنها تترضى عن الصحابة، وتمقت الرافضة على طعنها في كثير من الصحابة؟!!

ولا يخفى على من له اطلاع على محاربة الرافضة للقرآن والسنة أنها تطعن في القرآن وتعتقد تحريفه، والله يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] ويقول: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] وتطعن في صحيحي البخاري ومسلم، مع العلم أن الأمة الإسلامية أجمعت على تلقيهما بالقبول، فلا ينتظر من الرافضة في اليمن وغيره التخلي والترك لهذه الطعون في دين الإسلام.

أخي المسلم السني، احمد الله على السلامة من هذه الأمراض الفتاكة وجرد نفسك وهيئها للدعوة إلى العلم والعمل به، وخذ نصيبك من العلم قبل أن يحال بينك وبينه كما حيل بينه وبين هؤلاء، فما بينك وبين الوصول إلى هذا التيهان إلا أن تخذل وتصغي إلى دعاة الضلالة والحزبية والعمالة؛ عافانا الله جميعًا من كل غواية!!



رفع العلم في عصرنا

لقد وقع رفع العلم في عصرنا أكثر منه في عصر سبق، كيف لا وقد انحدر التعليم إلى تعلم غير الإسلام؟! بل اتجه بعض أبناء المسلمين إلى تعلم ما يضاد الإسلام أو ينسيه أو يغني عنه في نظر المتعلمين. فلقد رحل من أبناء المسلمين أعداد كبيرة يتعلمون في بلاد الكفار وعلى أيديهم، وليس التعلم على أيدي الكفار مقصورًا على العلوم الدنيوية المباحة كالطب وغيره، بل يتعلمون على أيديهم علومًا كاللغة العربية والتاريخ الإسلامي والفقه وغير ذلك، ومراد الأعداء بهذا التعليم إلقاء الشبه على

المتعلمين وغرس المفاهيم التي تشوه بالإسلام وتحاربه، بل ويتعلمون على أيديهم علومًا محرمة كالسحر والتنجيم وغير ذلك، بل أقامت الدولة اليهودية والدول النصرانية مدارس ومعاهد وجامعات في كثير من الأقطار الإسلامية يعلمون فيها أبناء المسلمين ما يفسدونهم به.

ولقد ظهر الغبن والخسران بسبب هذا التعليم المشئوم حتى قال السلطان العثماني عبد الحميد الثاني كما في كتاب "المؤامرة على بلاد الشام" ص (٦٠) وهو يتكلم عن المدارس اليهودية والنصرانية في ديار المسلمين: (إنها تشكل خطرًا كبيرًا على بلادنا! وقد كان خطؤنا جسيمًا؛ إذ سمحنا لكل دولة في كل زمان ومكان بإنشاء المدارس التي يرغبونها، وهانحن الآن نجني ضرر ما زرعنا، سمحنا لهم بفتح المدارس فقاموا يعلمون الطلاب أفكارا معادية لبلادنا).

وقال أيضًا في نفس المصدر ص (٦٩): (إن الأفكار المستوردة من أوربا تشكل خطرًا علينا، وتسبب لنا كارثة أليمة من حولي أن المسلمين سعداء؛ فلا أملك إلا أن أقاوم هذه الأفكار بكل ما أوتيت من قوة، إنها سموم تخرب العقول والقلوب!).

أقول: أين حكام المسلمين والأحزاب من هذه المعرفة الصحيحة والإدراك الثاقب والغيرة الإيمانية والنخوة الرجولية؟

وعلى كل: لم يحصل الجهل في عصر مضى كما حصل في عصرنا، وهذا مصداق ما رواه الصحابي الجليل أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا**» رواه البخاري رقم (٨٠) واللفظ له، ومسلم رقم (٢٦٧١).

فبسبب تتابع كثير من المسلمين على الجهل صار الجهل ثابتًا فيهم وميزة ظاهرة عليهم، حتى صاروا أضحوكة عند الكفار. وهذا الجهل من علامات قرب الساعة. ورحم الله الشعبي حيث قال: (لا تقوم الساعة حتى يصير العلم جهلا والجهل علما) رواه ابن أبي شيبة ١٤/ ١٦٢ رقم (٣٨٥٨٤)، وفي سنده مجالد، وهو ضعيف، ولكن

معناه صحيح.

قال التويجري في "إتحاف الجماعة" ٢/ ٩٤: (وقد ظهر مصداق هذا الحديث في زماننا... فقد هجره الأكثرون وقل الراغبون فيه والمعتنون به، وقد انصرفت همم الأكثرين إلى الصحف والمجلات وما شاكل ذلك مما كثير منه مشتمل على الجهل الصرف الذي قد ظهر في زماننا وثبت فيه وبث في مشارق الأرض ومغاربها غاية البث ونث بين الخاصة والعامة غاية النث وشغف به الكثير من الناس وسموه العلم والثقافة والتقدم، ومن يعتني به هو المهذب المثقف عندهم. وقد زاد الحمق والغرور ببعض السفهاء حتى أطلقوا على المعتنين بالعلوم الشرعية اسم الرجعيين وسموا كتب العلم النافع الكتب الصفراء؛ تحقيرًا لها وتنفيرًا منها).

قلت: ولا تنسَ ما حصل مؤخرًا في كثير من الأقطار الإسلامية في إلزام بعض الدول الكفرية حكام هذه الأقطار بإدخال القوانين الديمقراطية في المناهج الدارسية، فيا لها من مصيبة حلت بالمسلمين وأبنائهم؛ وإنا لله وإنا لله راجعون!!



إذا ذهب العلم الشرعي زادت العلوم المضرة وانتشرت بين المسلمين

ومن الخطر العظيم على المسلمين بسبب ذهاب العلم الشرعي: زيادة العلوم المضرة بهم وبغيرهم من الخلف؛ لأن العلم الشرعي كلما نقص اضطر الناس إلى العلوم الأخرى فتنفق عليهم، حتى قال الإمام الشافعي رحمه الله: (لولا أصحاب المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر). نقلًا من السير ١٠/ ٧٠.

فهذه حقيقة لا ينبغي تجاهلها والتغافل عنها، ويا لله كم فتحت من ثغرات الشر وأغلقت من أبواب الخير؛ بسبب ازدياد علوم الضلالة من سحر وتنجيم وفلسفة وشرك وكفر وبدع ومعاص وغير ذلك.

أضف إلى ما سبق ما استجد في عصرنا من إصدار الصحف والمجلات يوميا وأسبوعيا وشهريا وهي بالعشرات في بعض الدول، بل بالمئات في بعض الدول، والقائمون عليها كُتَّابٌ الغالب على كثير منهم الانحراف، بل بعضهم عدو لدود للإسلام وأهله، وموال لأعداء الله.

وأعظم مما سبق استيراد كتب المستشرقين من يهود ونصارى وغيرهم، واعتمادها عند كثير من الفرق والأحزاب، فهذه المؤلفات تملأ المكتبات والأسواق والمعارض.

فكل فرقة عندها من الكتب بالمئات وعندها الصحف والمجلات والنشرات اليومية وغير ذلك، ومن أعظم أسباب هذا الانتشار هو ذهاب حَمَلَةِ العلم الشرعي؛ فأحسن الله عزاء المسلمين في ذهاب علماء السنة، فهل من غيور على الإقبال على العلم الشرعي؟! وهل من منقذ للمسلمين؟! وهل من مصلح ومصحح لسير الناس إلى ربهم ودال لهم على سنة رسولهم ﷺ ؟

الفصل الثالث:

أسباب رفع العلم

العلم جعل الله له أسبابًا منها المصرح بها ومنها غير المصرح بها، وهي كثيرة وبعضها أهم من بعض، وقد حرصنا في سفرنا هذا على استيعاب ذكر أكثر الأسباب نظرا لأهميتها ومسيس الحاجة إلى كثير منها، فدونك إياها:

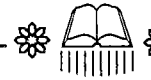

الأحاديث الدالة على أن سبب رفع العلم ذهاب العلماء الربانيين

لا خلاف بين أهل العلم عن أن سبب رفع العلم ذهاب أهله وحملته، دل على هذا أحاديث كثيرة وواضحة صريحة، فهي العمدة في هذه المسألة، ومنها:

الحديث الأول:

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: « **إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا**» أخرجه البخاري رقم (١٠٠) واللفظ له ومسلم رقم (٢٦٧٣) والترمذي رقم (٢٦٥٢) وأبو داود رقم (٤٣٣٣) وابن ماجه رقم (٥٢) وأحمد ٢/ ٤٥٧.

وقد رواه بعض الرواة فجعله عن عائشة رضي الله عنها، وحكم عليه الحافظ في الفتح ١٣/ ٣٤٩ بالشذوذ، وقال في الفتح ١/ ٢٥٧: (وقد اشتهر هذا الحديث من رواية هشام بن عروة، فوقع لنا من رواية أكثر من سبعين نفسًا عنه من أهل الحرمين

والعراقين والشام وخراسان ومصر وغيرها، ووافقه على روايته عن أبيه عروة أبو الأسود المدني وحديثه في الصحيحين، والزهري وحديثه في النسائي، ويحيى بن أبي كثير وحديثه في صحيح أبي عوانة، ووافق أباه على روايته عن عبد الله بن عمرو بن عمر بن الحكم بن ثوبان وحديثه في مسلم).

وقد جمع طرق حديث عبد الله بن عمرو المذكور محمد بن أسلم الطوسي والخطيب البغدادي ونصر المقدسي.

الحديث الثاني:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**سيأتي على أمتي زمان يكثر فيه القراء، ويقل الفقهاء، ويقبض العلم، ويكثر الهرج**». قالوا: وما الهرج، يا رسول الله؟ قال: «**القتل بينكم، ثم يأتي بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال لا يجاوز تراقيهم ثم يأتي من بعد ذلك زمان يجادل المنافق الكافر المشرك بالله المؤمن بمثل ما يقول**» أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٤٥٧ واللفظ له، والطبراني في الأوسط ٣/ ٣١٩ رقم (٣٢٧٧)، وهو حديث حسن.

الحديث الثالث:

عن شداد بن أوس رضي الله عنه وفيه أنه قال لجبير بن نفير: (هل تدري ما رفع العلم؟ قلت: لا أدري، قال: ذهاب أوعيته) رواه أحمد وغيره، وهو صحيح. وله حكم الرفع.

الحديث الرابع:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خذوا العلم قبل أن يذهب**» قالوا: وكيف يذهب العلم يا نبي الله، وفينا كتاب الله؟! قال: فغضب لا يغضبه الله ثم قال: «**ثكلتكم أمهاتكم أولم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل، فلم يغنيا عنهم شيئًا، إن ذهاب العلم أن يذهب حملته، إن ذهاب العلم أن يذهب حملته**» رواه

الدارمي ١/ ٣٠٩ رقم (٢٤٦) واللفظ له وأحمد ٥/ ٢٦٦ والطبراني ٨/ ٢٥٦ رقم (٧٨٦٧)، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" رقم (١٣٦، ١٣٧) والخطيب في تاريخه ٢/ ٢١٢ وهو حديث حسن بشواهده.

أيها القارئ، قرأت هذه الأحاديث وأدركت معناها، فهو نبأ عظيم، وكيف لا وهو نبأ عن تحول الأمة من أساس عزها ومجدها وأمنها واستقرارها وتمكينها إلى عكس ذلك؟! وكل هذا التحول سببه التساهل والإهمال في طلب العلم الشرعي، فما أعظم الحاجة وما أشد الفقر إلى الإقبال على العلم القرآني والنبوي، فحال كثير من المسلمين كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

فالقرآن موجود بين ظهراني المسلمين، والسنة النبوية كذلك، ومع هذا فكثير من المسلمين يتخبطون في الجهل وفي طغيانهم يعمهون.



الآثار الصحيحة في أن رفع العلم بسبب ذهاب علماء الإسلام

لا أعلم خلافًا بين سلف الأمة وعلمائها في أن رفع العلم هو سبب قبض علماء السنة، كما دلت على هذا الأحاديث السابقة والآثار الواردة، وقد رأيت أن أكتفي بما صح عنهم رضي الله عنهم:

الأثر الأول:

عن ابن مسعود رضي الله عنه وقد سبق ذكره عند حديث أنس رضي الله عنه وفيه: (فإذا ذهب العلماء استوى الناس، فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر؛ فعند ذلك يهلكون) وهو حسن. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١١/ ٢٥٢ رقم (٢٠٤٦٥) بلفظ: (عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله) وهو صحيح أيضًا.

الأثر الثاني:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (هل تدرون ما ذهاب العلم؟ قلنا: لا، قال: ذهاب العلماء) أخرجه الدارمي ١/ ٣١٠ رقم (٢٤٩) وأبو خيثمة في العلم رقم (٥٣) وهو حسن بما بعده.

وعنه أنه لما مات زيد بن ثابت قال: (من سره أن ينظر كيف ذهاب العلم، فهكذا ذهابه) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الكبير ٥/ ١٠٩ رقم (٤٧٥١) والحاكم في المستدرك ٣/ ٤٢٨ وفي سنده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. وأخرجه الطبراني في الكبير رقم (٤٧٤٩) وابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٦١-٣٦٢ والحاكم ٣/ ٤٢٢ والفسوي في المعرفة والتاريخ ١/ ٤٨٥ من طريق حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار قال: (لما مات زيد بن ثابت قعدت إلى ابن عباس في ظل قصر فقال: هكذا ذهاب العلم، لقد دفن اليوم علم كثير) وإسناده صحيح.

الأثر الثالث:

عن سلمان رضي الله عنه قال: (لا يزال الناس بخير ما بقي الأول، حتى يتعلم -أو يعلم- الآخِر. فإذا هلك الأول قبل أن يعلم -أو يتعلم- الآخِر هلك الناس) أخرجه الدارمي ١/ ٣١٠ رقم (٢٤٨) وهو حسن.

الأثر الرابع:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول: (ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون؟! تعلموا قبل أن يرفع العلم؛ فإن رفع العلم ذهاب العلماء). أخرجه الدارمي ١/ ٣١١-٣١٢ رقم (٢٥١) وأحمد في الزهد ص (١٤٤) وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢١٢، ٢٢١ وفي سنده سالم بن أبي الجعد وهو لم يسمع من أبي الدرداء، وقد جاء عنه مطولاً بلفظ: (تعلموا العلم قبل أن يقبض العلم، وقبضه أن يذهب بأصحابه، العالم والمتعلم شريكان في الخير، وسائر الناس لا خير فيهم، إن أغنى الناس رجل عالم افتقر إلى علمه فنفع من افتقر إليه، وإن استغني عن علمه نفع نفسه بالعلم الذي

وضع الله عز وجل عنده، فمالي أرى علماءكم يموتون وجهالكم لا يتعلمون؟! ولقد خشيت أن يذهب الأول ولا يتعلم الآخر، ولو أن العالم طلب العلم لازداد علما وما نقص العلم شيئًا، ولو أن الجاهل طلب العلم لوجد العلم قائمًا، فمالي أراكم شباعًا من الطعام جياعًا من العلم؟!) أخرجه البيهقي في "الشعب" ٢/ ٢٦٩ رقم (١٧٢٠)، وابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" رقم (١٠٣٦) واللفظ له. وسنده لا بأس به.

الأثر الخامس:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن رفع العلم قال: (أما إنه ليس ينزع من صدور العلماء، ولكن يذهب العلماء) رواه أحمد ٢/ ٤٨١ واللفظ له، والبزار كما في "كشف الأستار" ١/ ١٢٥ رقم (٢٣٦) وسنده صحيح.

الأثر السادس:

عن ابن سيرين قال: (ذهب العلم، فلم يبق إلا غبرات في أوعية سوء) أخرجه ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" ١/ ٥٩٥ رقم (١٠٢٢) وسنده صحيح. والشاهد منه (في أوعية سوء) أي: عند علماء سوء.

الأثر السابع:

عن عبد الله بن دينار قال: (كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه؛ فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله) أخرجه الدارمي ١/ ٤٣١ رقم (٥٠٥) والرامهرمزي في "المحدث الفاصل" رقم (٣٤٦) والخطيب في "تقييد العلم" ص(١٠٦). وسنده صحيح.

الأثر الثامن:

عن الحسن البصري قال: (موت العالم ثلمة في الإسلام، لا يسدها شيء ما طرد الليل والنهار) أخرجه الدارمي ١/ ٣٥١ رقم (٣٣٣) وأحمد في الزهد ص (٢٦٢) وابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" رقم (١٠٢١) واللفظ له. وهو صحيح. ولا يصح مرفوعًا عن أحد من الصحابة.

الأثر التاسع:

عن هلال بن خباب أبي العلاء قال: (سألت سعيد بن جبير، قلت: ما علامة الساعة وهلاك الناس؟ قال: إذا ذهب علماؤهم) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٧٦ وابن أبي شيبة ١٤/ ٣٨ رقم (٣٨٢٠٢) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله رقم (١٠٢٣) واللفظ له والبيهقي في الشعب رقم (١٥٤٢). وسنده صحيح.

الأثر العاشر:

عن حماد بن زيد قال: (كان يبلغ أيوب موت الفتى من أصحاب الحديث، فيرى ذلك فيه. ويبلغه موت الرجل قد يذكر بعبادة، فلا يرى ذلك فيه) أخرجه الخطيب في "شرف أصحاب الحديث" رقم (١١٩).

الأثر الحادي عشر:

عن كثير بن زياد في تفسير الحديث (لا يزداد الأمر إلا شدة) قال: ذهاب العلماء) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله رقم (١٠٤٠) وسنده حسن إلى كثير.

الأثر الثاني عشر:

عن محمد بن سيرين قال: (سألت عبيدة عن آية في كتاب الله، فقال: عليك بتقوى الله والسداد، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن) أخرجه سعيد ابن منصور في "سننه" ١/ ١٨٥، وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٤٣ رقم (٣٠٦٠١)، والطبري في "تفسيره" ١/ ٨٦، وأبوعبيدة في "فضائل القرآن" ص(٣٧٧)، وإسناده صحيح.

صح من هذه الآثار أن ذهاب علم الشريعة الإسلامية هو بذهاب حملته وعدم خلف لهم، وعلى هذا درج أهل العلم في كلامهم، قال القرطبي في "المفهم" ٦/ ٧٠٥: (وهو نص في أن رفع العلم لا يكون بمحوه من الصدور، بل بموت العلماء وبقاء الجهال الذين يتعاطون مناصب العلماء في الفتيا والتعليم يفتون بالجهل ويعلمونه؛

فينتشر الجهل ويظهر، وقد ظهر ذلك ووجد على نحو ما أخبر النبي ﷺ فكان ذلك دليلا من أدلة نبوته، وخصوصًا في هذه الأزمان؛ إذ قد ولي المدارس والفتيا كثير من الجهال والصبيان وحرمها أهل ذلك الشان).

وقال النووي في "شرح مسلم" ١٦/ ١٨٣: (هذا الحديث يبين أن المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حُفَّاظِهِ، ولكن معناه أنه يموت حملته، ويتخذ الناس جهالًا يحكمون بجهالاتهم فيضلون ويضلون).

وقال ابن كثير في "النهاية في الفتن والملاحم" ١/ ٣٩: (ظاهر في أن العلم لا ينتزع من صدور الرجال بعد أن وهبهم الله إياه).

وقال ابن حجر في "الفتح" ١/ ٢٦٠: قال ابن عبد البر: (محو العلم من الصدور جائز في القدرة، إلا أن هذا الحديث دل على عدم وقوعه).

وقال المباركفوري في تعليقه على "السنن الواردة في الفتن" ٣/ ٥٩٣: (وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى القول الأخير أي: أن المراد من نقص العلم وقلته، ومن رفعه وقبضه هو ما يفيده حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما وغيره من قبض العلماء وفنائهم بما معهم من العلم).



موت الصحابة علامة على رفع كثير من العلم

لقد كان الصحابة حصنًا منيعًا وبابًا مغلقًا أمام الضلالات والانحرافات. فلما ماتوا انكسر ذلك الباب وانهدم ذلك الحصن؛ فتدفقت الشرور والفتن على المسلمين تدفقًا! وهذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام: «... **وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي جاء أمتي ما يوعدون**» رواه مسلم رقم (٢٥٣١) عن أبي موسى رضي الله عنه.

قال القرطبي في "المفهم" ٦/ ٤٨٥: (يعني: أن أصحابه ما داموا موجودين كان الدين قائمًا والحق ظاهرًا والنصر على الأعداء حاصلًا، ولما ذهب أصحابه غلبت

الأهواء وأديلت الأعداء، ولا يزال أمر الدين متناقصا وجده ناكصا إلى أن لا يبقى على ظهر الأرض أحد يقول: الله الله. وهو الذي وعدت به أمته، والله تعالى أعلم).

وقال الإمام النووي ١٦/ ٦٨: (معناه: من ظهور البدع، والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك. وهذه كلها من معجزاته ﷺ).

ولقد كان كبار الصحابة -ومنهم الخلفاء الراشدون- أعظم ساد للفتن، عن حذيفة رضي الله عنه قال: (ما بينكم وبين أن يرسل عليكم الشر فراسخ إلا موتة في عنق رجل يموتها، وهو عمر) رواه ابن أبي شيبة ١٤/ ٦٥ رقم (٣٨٢٨٦) واللفظ له والروياني ٣/ ١٠٧ ونعيم بن حماد ١/ ٤٢. وإسناده صحيح.

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: (إن الإسلام كان في حصن حصين، وإنهم ثلموا في الإسلام ثلمة بقتلهم عثمان، وإنهم شرطوا شرطة وإنهم لن يسدوا ثلمتهم -أو لا يسدوها- إلى يوم القيامة) أخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" ٣٩/ ٤٨٣ في ترجمة عثمان بإسناد حسن، على خلاف في سماع الحسن من سمرة.

وقال حذيفة رضي الله عنه بعد أن بلغه مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه: (اليوم نزل الناس حافة الإسلام، فكم من مرحلة قد ارتحلوا عنه!) رواه ابن أبي شيبة ١٤/ ١٩ رقم (٣٨٦٦٤) وإسناده صحيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "منهاج السنة النبوية" ٦/ ٢٣١: (لم تحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة. فلما قتل وتفرق الناس حدثت بدعتان متقابلتان: بدعة الخوارج المكفرين لعلي، وبدعة الرافضة المدعين لإمامته وعصمته أو نبوته أو إلاهيته).

قلت: وقد خمدت البدعتان المذكورتان على يد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما هو معلوم، وإخماده لهما من أجل أعماله التي ذب فيها عن الإسلام وأهله، وهكذا كل من رزق علما واسعًا وهديا قويما وسيرا على ما كان عليه السلف، صار سدًّا منيعًا لكثير من الفتن، ومفتاحًا لكثير من الخير.



موت علماء السنة فساد لنظام العالم إن لم يخلفهم من يقوم مقامهم

لقد سبق أن ذكرنا قريبًا أن رفع العلم ونقصه هو بذهاب أهل العلم، ونزيد هاهنا هذا الأمر إيضاحًا وبيانًا أكثر:

اعلم -أيها المسلم- أن العلماء العاملين بالحق الراسخين في علم الشريعة إذا مات أي واحد منهم ترك ثلمة في الإسلام لا تسد إلى يوم القيامة، وهكذا لا تزال الثلم في الإسلام تكثر وتزداد بدون سد لها حتى يفسد حال المسلمين الديني والدنيوي، وهاك إيضاح هذا، فنقول: إذا مات العالم إما أن يذهب بعلمه؛ لأنه لم يجعله في مؤلفات له، فهذا دفن علمه معه، وهذا هو الحاصل في كثير من علماء الصحابة وعلماء التابعين، ولهذا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه لما توفي عمر: (إني لأحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم) رواه أبو خيثمة في العلم ص (١٨) والطبراني في الكبير ٩/ ١٧٩-١٨٠ رقم (٨٨٠٩). وإسناده صحيح.

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لما توفي زيد بن ثابت رضي الله عنه: (لقد دفن اليوم علمٌ كثير).

وروى البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٢٧-٢٨ رقم (١٥٧٩) بسند جيد عن قتادة قال: (لما مات أنس بن مالك قال مورق العجلي: ذهب اليوم نصف العلم!! قيل: كيف ذاك يا أبا المعتمر؟ قال: كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفنا في الحديث قلنا: تعال إلى من سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم).

وهذه عائشة رضي الله عنها كانت مرجعية للصحابة قال أبو موسى الأشعري: (ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما) رواه الترمذي (٣٨٨٣) وصححه الألباني رحمه الله.

وعن الحسن البصري -تقدم تخريجه ص (٧١)- بسند صحيح أنه قال: (موت العالم ثلمة في الإسلام، لا يسدها شيء ما طرد الليل والنهار). فذهاب هذا الصنف من العلماء ثلمة في الإسلام لا تسد.

وإما أن يموت العالم المتبحر وقد دون علمه في كتب ومؤلفات له، فهذا وإن كان كثير من علمه مسهلًا باعتبار احتواء كتبه له، إلا أن الثلمة تظل بسبب ذهابه؛ لأن وجود كتاب العالم غير وجود العالم نفسه؛ لأن بوجوده ينتشر صيته وعلمه بين الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ويتلقى العلم الشرعي على يده، ويتأثر بسماع صوته ورؤيته وغير ذلك خلق لا يحصيهم إلا الله.

وإما أن يموت العالم وقد دون حذاق تلاميذه علمه وصار منهم من هو مؤهل للقيام بالخلافة العلمية بعده، فهذا وإن كان قد أسس تأسيسًا عظيمًا إلا أن هذا الأساس غالبًا لا يدوم، فينقرض العلم من جهة تلاميذه إما كليا وإما جزئيا. فالرفع للعلم مستمر والنقص له يزيد؛ لأن العلماء يقلون شيئًا فشيئًا.

ومعلوم أن وجود علماء الإسلام والسنة بهم صلاح الوجود وبذهابهم خراب الوجود، فكلما قل وجودهم كثر الفساد في المجتمع حتى ينتهي وجودهم بالكلية؛ فعند ذلك تقوم الساعة.

وقال العلامة ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" ١/ ٢٦٥: (لما كان صلاح الوجود بالعلماء ولولاهم كان الناس كالبهائم بل أسوأ حالًا، كان موت العالم مصيبة لا يجبرها إلا خلف غيره له، وأيضًا فإن العلماء هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك فموتهم فساد لنظام العالم، ولهذا لا يزال الله يغرس في هذا الدين منهم خالفا عن سالف يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده، وتأمل إذا كان في الوجود رجل قد فاق العالم في الغنى والكرم وحاجتهم إلى ما عنده شديدة وهو محسن إليهم بكل ممكن ثم مات وانقطعت عنهم تلك المادة، فموت العالم أعظم مصيبة من موت مثل هذا بكثير، ومثل هذا يموت بموته أمم وخلائق كما قيل:

تعلم ما الرَّزِيَّة فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرَّزِيَّة فقد حرٍّ يموت بموته بشر كثير

وقال آخر:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

تنبيهٌ: لا يفهم من ذكرنا أن علم الصحابة لم يدون أنه لم يحفظ، بل هو محفوظ إلى ساعتنا هذه، وسيظل محفوظًا إلى قيام الساعة، ولكنه متفرق في الكتب فتستصعب الفائدة منه إلا من تيسرت له مراجع علمية كثيرة ووقت للبحث والمطالعة، مع أنه قد قرب علم السلف في عصرنا من جهة التصحيح أكثر مما مضى، وكذلك من جهة الجمع والتأليف.

فيا أيها المسلم العاقل القادر على التعلم والتعليم والعمل بالعلم حتى تلقى الله فأقبل على هذا ولا تتوانَ، فإنك إن تركت ذلك كنت ممن شارك في فساد نظام العالم الإسلامي وخراب حياتهم ووهن أمرهم وضعف قوتهم وضياع عزهم وسقوط مجدهم.



أصل رفع العلم بسبب عدم العمل به

رفع العلم بسبب عدم العلم به هو أصل ذهاب العلم ورفعه؛ لأن ابن لبيد قال: (يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة!؟ فقال: «**ثكلتك أمك زياد! إن كنت لأراك أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل، ولا يعملون بشيء منها؟!**» أخرجه الطبراني في «الكبير» ٥/ ٢٦٥ رقم (٥٢٩١) يعني أن قراءتكم بدون عمل به لا تغني عنكم شيئًا كحال اليهود والنصارى الذين لم ينتفعوا بالتوراة والإنجيل. ولله در من قال: (لولا العقل ما كان علم، ولولا العمل ما احتيج إلى العلم).

فلينظر كل عالم وداع إلى الله وطالب علم هل خوفه من الله ومراقبته له وخشيته منه وتعظيمه له وحبه وتوكله عليه والإقبال على عبادته والتوبة إليه أكثر من الناس أم لا؟ فإن كان في هذه الأعمال الجليلة لا يعمل بعلمه فهذا علمه وبال عليه في الدنيا والآخرة، وهو معدود في الأغمار.

وهاك أقوال علماء الإسلام في بيان الضرر في عدم العمل بالقرآن والأثر: قال أبوالدرداء رضي الله عنه : (لا تكون عالمًا حتى تكون به عاملًا) أخرجه الدارمي ١/ ٣٣٦-٣٣٧ رقم (٣٠١) واللفظ له، وأبونعيم في الحلية ١/ ٢١٣، ووكيع في الزهد رقم (٢٢٠). وهو صحيح.

وقال سفيان بن عيينة: (أجهل الناس من ترك ما يعلم، وأعلم الناس من عمل بما يعلم، وأفضل الناس أخشعهم لله عز وجل) رواه الدارمي ١/ ٣٥٥ رقم (٣٤٢)، وسنده صحيح. وإذا كان أجهل الناس، فما أبعده أن يكون عالِمًا!!

وأيضًا إذا لم يعمل العالم بعلمه لم يجعل الله في مواعظه بركة ولا قبولًا، وهذا من أسباب رفع العلم. قال مالك بن دينار: (إن العالم إذا لم يعمل زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا) أخرجه أحمد في الزهد ٢/ ٣٠٤، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٤٧٢، والخطيب في "الاقتضاء" رقم (٩٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله رقم (١٢٥٥)، وهو صحيح.

وأيضًا تنزع البركة من المعلم الذي لا يعمل بعلمه. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لي: قد علمت، فماذا عملت فيما علمت؟) أخرجه ابن المبارك في الزهد رقم (٣٩)، وأحمد في الزهد ص(١٧٠)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" ١٣/ ٣١١، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" ١/ ٦٨٠ رقم (١٢٠١)، والبيهقي في الشعب ٢/ ٢٨٦ رقم (١٧٨٣)، والخطيب في "اقتضاء العلم العمل" رقم (٥٥)، وحسن إسناده الألباني في تحقيقه لاقتضاء العلم. فالله أسأل أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

قال ابن عقيل في "شرح الإقناع": (رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز ولا أقول العوام بل العلماء... فتدبرت أمر الفريقين فإذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم، وهل هذه إلا أفعال الأجناد، يصولون في دولتهم، ويلزمون المساجد في بطالتهم). نقلاً من "البرهان في براءة السلفية من سفه الغلاة وتفريط السفهاء" ص (١٢٩).

فيا أيها المسلمون، بادروا إلى العمل بما علمكم الله قبل نزول اللعنة وحلول النقمة وحدوث الفتن المدلهمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[الصف:٢-٣].

ومن أسباب رفع العلم ترك الدعوة إليه

الدعوة إلى الله هي تبليغ للعلم الذي يحمله الداعي، فالواجب على من رزقه الله علما نافعًا أن يدعو عباد الله إلى طاعة الله بما شرع، وترك ما نهى الله عنه ومنع. والدعوة إلى الله وظيفة الرسل من أولهم إلى آخرهم، فمن صرف همته إلى الاقتداء بهم فليكن ذلك أيضًا في نفع المسلمين وإصلاح أحوالهم وإنقاذهم مما يضر بدينهم ودنياهم كما كان الأنبياء؛ فإن من أعظم ما يسبب له النجاح في الإصلاح: الدعوة إلى الله، قال الإمام الشوكاني في "أدب الطلب" (١٣٤-١٣٥): (فالعالم المرتاض بما جاءنا من الشارع الذي بعثه الله تعالى متممًا لمكارم الأخلاق... إذا جعل غاية همه وأقصى رغبته جلب المصالح الدينية للعباد ودفع المفاسد عنهم، كان من أنفع دعاة المسلمين وأنجح الحاملين لحجج رب العالمين).

وقبله قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ويجب على المسلمين أن يكونوا يدًا واحدة على الكفار، وأن يجتمعوا ويقاتلوا على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، ويدعوا المسلمين إلى ما كان عليه سلفهم الصالح من الصدق وحسن الأخلاق؛ فإن هذا من أعظم أصول الإسلام وقواعد الإيمان التي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه، وهو من

أعظم العبادات) مختصر الفتاوى المصرية ص(٥٠٩).

فمتى تلاعب حَمَلَةُ العلم بالدعوة إلى الله تفشى الجهل في الناس وحل محل العلم، وصار العلم الشرعي مهجورًا محاربًا؛ وكفى بهذا سببًا لرفعه!!

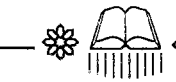

ومن أسباب رفع العلم انحراف العلماء

العالِم إذا زل واتبع في زلته زل العالَم، فكيف إذا انحرف عن الحق وصار داعيًا إليه؟! فإن هذا وبال عليه وشقاء على المفتونين به، قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن ما أخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رئيت بهجته عليه وكان ردءًا للإسلام، غيره إلى ما شاء الله؛ فانسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك**» قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك المرمي أم الرامي؟ قال: « **بل الرامي**» . رواه ابن حبان رقم (٨١)، والبزار كما في "البحر الزخار" ٧/ ٢٢٠ رقم (٢٧٩٣)، وحسن إسناده الهيثمي في المجمع ١/ ١٧٨، وأبو يعلى كما في "تفسير ابن كثير" ٦/ ٤٥٢، وقال ابن كثير: إسناده جيد. قلت: وهو كما قال. وقد قال العلامة الألباني رحمه الله في "الصحيحة" (٣٢٠١): (فالحديث حسن إن شاء الله تعالى؛ لأن له شواهد في الجملة).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه دخل على حذيفة رضي الله عنه ، فقال: أوصنا يا أبا عبد الله. فقال حذيفة: أما جاءك اليقين؟ قال: بلى وربي. قال: فإن الضلالة حق الضلالة أن تعرف اليوم ما كنت تنكر قبل اليوم، وأن تنكر اليوم ما كنت تعرف قبل اليوم،

وإياك والتلوُّن؛ فإن دين الله واحد. رواه علي بن الجعد في مسنده رقم (٣٠٨٣)، واللالكائي في "اعتقاد أهل السنة" ١/ ٩٠ رقم (١٢٠)، والبيهقي في "السنن الكبرى" ١٠/ ٤٢، والحارث بن أبي أسامة في "مسنده" كما في "بغية الباحث" ١/ ٥٢٧. وهو أثر صحيح.

وقال الذهبي في "السير" ٧/ ١٥٢-١٥٣ وهو يتحدث عن أصناف العلماء: (وقوم نالوا العلم، وولوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش؛ فتبًّا لهم! فما هؤلاء بعلماء! وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ من الأخبار. وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث؛ فهتكه الله، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار. وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئًا كبيرا، وتضلعوا منه في الجملة، فخلف من بعدهم خلف بان نقصهم في العلم والعمل).

قلت: انحراف بعض العلماء يضر بالمسلمين ضررًا عظيمًا، لاسيما عند إصرار العالم المنحرف على أنه محق، ويشتهر أمره هذا بين الناس، وعندما يتحرك المروجون لانحرافه بأساليب شيطانية كقولهم: إنه معتدل، ومتفهم للواقع، ومستنير، وآخذ بلب الشريعة. فهذا الصنف من العلماء إذا أحسنت الأمة الإسلامية به الظن قلبها رأسًا على عقب، وحولها من طريق الاستقامة إلى طريق الغواية.

قال الإمام سفيان بن عيينة: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى). وهو حسن.

وقال الحافظ سفيان الثوري: (تعوذوا بالله من فتنة العابد الجاهل، وفتنة العالم الفاجر؛ فإن فتنتها فتنة لكل مفتون) رواه ابن المبارك في "الزهد" ص(١٨)، والآجري في "أخلاق العلماء" ص(١٠٨) رقم (٧٠)، وابن عبدالبر في "الجامع" ١/ ٦٦٦ رقم (١١٦١). وهو أثر صحيح.

فيا ويل أمة الإسلام من هذا الصنف الفاجر إن هي اغترت به وقبلت ما عنده!!



ومن أسباب رفع العلم: الجهل بمقاصد الشريعة الإسلامية

العلم بمقاصد الشريعة أصل للقيام بالدين على الوجه الصحيح، فمتى جهل حملة الإسلام مقاصد الشريعة فقد باؤوا بالفشل والضياع، فمن جهل يسر الإسلام وقع في التشدد والتنطع، ومن جهل التمسك بالإسلام وقع في التهتك والآثام. ومن جهة العمل للإسلام تركه عرضة للطَّغَام ونهبة للئام.

قال العز بن عبدالسلام في «قواعد الأحكام» ٢/ ١٦٠: (ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد، حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها إجماع ولا نص ولا قياس خاص).

قلت: فكيف حال من جهل ما هو معلوم من الدين، وصار يخبط خبط عشواء وهو يدعي أنه من عمالقة المسلمين.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام بيَّن فيه أن المقصد من التشريع إصلاح الباطن لا مجرد إصلاح الظاهر، قال في «درء تعارض العقل مع النقل» ٩/ ٣٧٢-٣٧٣: (والخلق صلاحهم وسعادتهم في أن يكون الله هو معبودهم الذي تنتهي إليه محبتهم وإرادتهم ويكون ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات... والذي يجب أن يكون هو المراد المقصود بالحركات).

وقال الشاطبي في «الموافقات» ٢/ ٨: (إن الشارع قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية). فمن فهم الشريعة على غير هذا، فهو جاهل بها. ولنضرب مثالاً لعدم فهم مقصد الشريعة باتباع الهوى:

من المعلوم أن الشريعة جاءت لإخراج الناس من اتباع أهوائهم إلى اتباع الشريعة؛ لأن اتباع أهوائهم ينافي عبودية الله بالإخلاص والصدق والحب والتعظيم

له والرضا بشرعه والتسليم لحكمه، فمن لم يفهم مقصد العبودية كانت عبوديته على حسب العادة والمظهر. وأيضًا في اتباع الهوى من الضرر فوق ما يتصور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» ١٩/ ٣٤: (والإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهي ما يضره ويلتذ به، بل يعشق ذلك عشقًا يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله).

مثال آخر:

الإسلام حرم الزنا وحرم كل طريق وقطع كل وسيلة وسد كل باب يوصل إليه، فمن جهل مقصد الشريعة في تحريم الزنا وهو صيانة الأعراض من التهم وسوء الظنون، اهتم بتحذير الناس من الزنا دون الاهتمام بتحذيرهم من وسائله من تبرج النساء واختلاطهن وخلوتهن وسماع أصواتهن وقبول أوصافهن. فيا من تسعى في إصلاح الناس تضلع بمعرفة مراد الله ورسوله؛ فهو أساس الانتفاع بالعلم الشرعي.

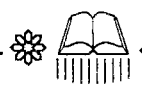

ومن أسباب رفع العلم تلقيه عند الأصاغر وترك الأكابر

ومرادنا هنا بالأصاغر الذين استقلوا بالعلم عن العلماء مع عدم رسوخهم فيه، وسعوا في قطع الطريق على العلماء الكبار، وقد جاءت الأحاديث والآثار الدالة على التحذير من تلقي العلم الشرعي على يد الأصاغر مع وجود الأكابر.

فعن أبي أمية الجُمَحِيِّ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر**» أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦١)، وعنه أبوعمرو الداني في «الفتن» (٦٢)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ١/ ٨٥ رقم (١٠٢)، والطبراني في الكبير رقم (١٠٥٥)، وابن منده في «المعرفة» ٢/ ٢٠-٢١، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٦١٢ رقم (١٠٥١)، والخطيب في

«الفقيه والمتفقه» ٢/ ١٥٥ رقم (٧٧٥). وهو حديث حسن، انظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٦٩٥).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم وشرارهم هلكوا) رواه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٨١٥)، وعبدالرزاق (٢٠٤٤٦)، وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠) واللفظ له، وهو صحيح وقد رواه مرفوعًا الهروي في «ذم الكلام» ولا يصح. وقد جزم بعض العلماء أن له حكم الرفع.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (قد علمت متى صلاح الناس، ومتى فسادهم: إذا جاء الفقه من قبل الصغير استعصى عليه الكبير، وإذا جاء الفقه من قبل الكبير تابعه الصغير فاهتديا) أخرجه ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٦١٥ رقم (١٠٥٥). وسنده جيد. وأخرجه القاسم بن أصبغ في «مصنفه»، كما في الفتح بلفظ: (فساد الدين إذا جاء العلم من قبل الصغير استعصى عليه الكبير، وصلاح الناس إذا جاء العلم من قبل الكبير تابعه عليه الصغير) صحح إسناده الحافظ في «الفتح» ١/ ٣٠١.

قلت: وعلى هذا قرر أهل العلم أن أصل الشر والفتن في المسلمين من الصنف الذي لم يرسخ في علم الشريعة ولم يرجع إلى ما عليه الراسخون، بل يستبد برأيه ويسفه من هو أكبر منه علما وأرسخ منه قدما وأسبق منه سنا، وهذه أقوالهم:

قال ابن حزم في كتابه «الأخلاق والسير» ص (٩١): (لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها؛ فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون).

وقال الشاطبي في كتابه «الاعتصام» ١/ ١٤٥: (إن كل راسخ لا يبتدع أبدًا، وإنما يقع الابتداع ممن لم يتمكن من العلم الذي ابتدع فيه، حسبما دل عليه الحديث ويأتي تقريره بحول الله؛ فإنما يؤتى الناس من قبل جهالهم الذين يحسبون أنهم علماء).

وقال الإمام الشوكاني في "البدر الطالع" ١/ ٤٧٣ في ترجمة علي بن قاسم حنش: (ومن محاسن كلامه الذي سمعته منه الناس على طبقات ثلاث، فالطبقة العالية العلماء الأكابر وهم يعرفون الحق والباطل، وإن اختلفوا لم ينشأ عن اختلافهم الفتن؛ لعلمهم بما عند بعضهم بعضًا والطبقة السافلة عامة على الفطرة لا ينفرون عن الحق وهم أتباع من يقتدون به، إن كان محقًا كانوا مثله، وإن كان مبطلًا كانوا كذلك، والطبقة المتوسطة هي منشأ الشر وأصل الفتن الناشئة فى الدين، وهم الذين لم يمعنوا في العلم حتى يرتقوا إلى رتبة الطبقة الأولى، ولا تركوه حتى يكونوا من أهل الطبقة السافلة؛ فإنهم إذا رأوا أحدًا من أهل الطبقة العليا يقول ما لا يعرفونه مما يخالف عقائدهم التي أوقعهم فيها القصور فوقوا إليه سهام التقريع ونسبوه إلى كل قول شنيع، وغيروا فطر أهل الطبقة السفلى عن قبول الحق بتمويهات باطلة، فعند ذلك تقوم الفتن الدينية على ساق هذا معنى كلامه الذي سمعناه منه. وقد صدق؛ فإن من تأمل ذلك وجده كذلك).

تنبيـــهٌ: قد يفهم القارئ من كلام العلماء السابق أن المستفيدين من طلاب العلم الشرعي مذمومون عمومًا، وليس كذلك، بل طلاب العلم هم سفراء أهل العلم إلى الناس، وإنما يذم منهم من سابق أهل العلم واستغنى عن توجيهاتهم ونصائحهم وعن تلقي العلم على أيديهم. وللمزيد انظر كتابنا "بداية الانحراف ونهايته".

وخلاصة هذه المسألة أن طلبة العلم المستفيدين على قسمين:

القسم الأول: **لا يستقل ولا يغتر بعلمه ولا يعجب بفهمه**، بل يبقى سفيرًا لأهل العلم يرجع إليهم وينقل عنهم ويصدر عن توجيهاتهم، ويواصل من حيث وصلوا، وهؤلاء هم الذين يرجى للأمة أن تسعد بهم كما سعدت بالعلماء الربانيين، ويرجى لهم أن يكونوا في مستقبلهم أئمة هدى، ومرجعية للأمة.

والقسم الثاني: **هم الذين يحرصون على الاستقلال بعلمهم والمسابقة لكبارهم** معجبين بفهمهم وفصاحتهم مغترين بمن حولهم من المتأثرين بهم، خصوصًا عند أن

يسمعوا منهم (يا شيخ! يا شيخ!) وعندما يحقق أحدهم بعض الرسائل أو يؤلف فيلبِّس عليه الشيطان ويقول له: أنت، أنت. وإذا سمع أن شيخه يقول له: (يا أخانا)، ولم يقل له: (يا شيخ) أخذ في نفسه على شيخه، نسأل الله العافية.



ومن أسباب رفع العلم تلقيه على أيدي أهل البدع والتحزب

ليعلم كل مسلم أن البدع عدو الدين وسمه القاتل، وكيف لا وإحداثها فيه سبب لرفع السنن التي بها قوام الدين؟! فلا يزال أهل البدع يحدثون بدعًا حتى يذهب دين المسلمين المقبلين عليهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعة وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدع وتموت السنن) أخرجه الداني في "الفتن" ٣/ ٦١٣ رقم (٢٧٧)، وابن وضاح ص(٣٨) وغيره. قال الهيثمي في "المجمع" ١/ ١٨٨: ورجاله موثقون.

قلت: الهيثمي يقول هذه العبارة إذا كان في بعض رجال السند من فيه ضعف، وفي سند هذا الأثر مهدي بن أبي مهدي وهو مجهول حال، ويتقوى هذا الأثر بما جاء عن حسان بن عطية قال: (ما أحدث قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة) أخرجه الدارمي في مسنده ١/ ٢٣١ رقم (٩٩)، وابن وضاح في "البدع والنهي عنها" رقم (٩٠)، وأبونعيم في "حلية الأولياء" ٦/ ٧٣، ويعقوب بن سفيان الفسوي في "المعرفة والتاريخ" ٣/ ٣٨٦، وسنده صحيح.

ألا وليعلم كل مسلم أن أساس وجود البدع وانتشارها وتمكنها من المسلمين إنما ذلك بتلقي العلم على أيدي أهل البدع والتحزب، وهذا التلقي محذور شرعًا وعقلًا، لقول الرسول ﷺ: «**إن من أشراط الساعة: أن يلتمس العلم عند الأصاغر**» وهو حديث حسن. تقدم تخريجه ص (٨٣).

وقد فسر أهل العلم قول الرسول ﷺ: «**الأصاغر**» بأنهم أهل البدع. وهو كذلك. قال الشاطبي في هذا التفسير: (وهو موافق؛ لأن أهل البدع أصاغر في العلم، ولأجل ذلك صاروا أهل بدع) "الاعتصام" ٢/ ١٧٤.

ولقد كان السلف يحذرون غاية التحذير من تلقي العلم على أيدي أهل البدع، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه عن أصاغرهم وشرارهم هلكوا) أخرجه ابن عبدالبر في "جامعه" رقم (١٠٥٧)، والهروي في "ذم الكلام" رقم (١٤١٢). وسنده صحيح. تقدم تخريجه ص(٨٤).

وجاء عند ابن عبدالبر رقم (١٠٥٩) بلفظ: (فإذا كان العلم في صغاركم سفه الصغير الكبير). وهو صحيح بهذا اللفظ.

وعن ابن سيرين أنه قال: (إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم) أخرجه الدارمي ١/ ٣٩٨ رقم (٤٣٨)، وابن سعد ٧/ ١٩٤، وابن حبان في "مقدمة المجروحين" ١/ ٢١، وابن عدي في "مقدمة الكامل" ١/ ١٥٥، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" ٢/ ١٩١ رقم (٨٤٤) وسنده صحيح.

وعن مالك أنه قال لخالد بن خداش: (اتق الله، وانظر ممن تأخذ هذا الشأن!) أخرجه الهروي في "ذم الكلام" رقم (٨٨٦، ١٣٩١)، والخطيب في الكفاية (١٥٢). وسنده صحيح.

وأخرجه الهروي في المصدر المذكور رقم (١٣٨٩) بلفظ (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم؛ فقد أدركت سبعين، وأشار بيده إلى مسجد رسول الله ﷺ، يقول: قال فلان: قال رسول الله ﷺ. فلم آخذ عنهم شيئًا...) وهذا الأثر لا أعلمه صح عن واحد من الصحابة، ولا عن الرسول ﷺ، وقد صح عن غير مالك من التابعين.

وأيضًا أخرجه يعقوب بن شيبة الفسوي في "المعرفة والتاريخ" ١/ ٦٨٤ وابن عبدالبر في "التمهيد" ١/ ٦٦ عن معن بن عيسى قال: كان مالك بن أنس يقول: (لا تأخذ العلم من أربعة، وخذ ممن سوى ذلك، لا تأخذ من سفيه معلن بالسفه وإن

كان أروى الناس، ولا تأخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس إذا جرب ذلك عليه وإن كان لا يتهم أن يكذب على رسول الله ﷺ، ولاَ مِن صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولاَ مِن شيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث). وسنده صحيح.

وعلى ما عليه السلف صار أهل العلم من بعدهم قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» ٢٨/ ٢٠٥: (وهذا حقيقة قول من قال من السلف والأئمة: إن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم، ولا يصلى خلفهم، ولا يؤخذ عنهم العلم).

وفي كتاب فتاوى أئمة المسلمين بقطع لسان المبتدعين لجامعه محمود محمد خطاب السبكي ص (١٣١): (أجمع الأئمة المجتهدون على أنه لا يجوز أخذ العلم عن مبتدع وقالوا: الزنا من أكبر الكبائر، أخف من أن يسأل الشخص عن دينه مبتدعًا).

وفي الكتاب نفسه ص(٦١): (والمطلوب المؤكد من الشخص أن يعمل بما يوافق الكتاب والسنة ويترك كل ما عدا ذلك، وكل من كره السنة والعمل بها كافر يجب البعد عنه، ومن كان من المشايخ مرتكبًا للبدعة تاركًا للسنة يجب التباعد عنه وهجره ومقاطعته، ولا يجوز تلقي العلم عنه لأنه مفسدة للدين، وأي مفسدة أكبر من ذلك؟).

أيها المسلم، أي عاقل يمكن علماء البدع والتحزب من قلبه وعقله وروحه؟ ليلغموا عليه عقله وقلبه بالشبه المردية؛ فيصير الحق عنده باطلاً والباطل حقًّا، والحلال حرامًا والعكس، فيغير معالم الإسلام وثوابت الأخوة في الدين وحسن المعاملة مع المسلمين فتستباح الدماء والأعراض بسبب ذلك، وتزهق الأنفس والأرواح وتتصدع الأمة الإسلامية إلى فرق متناحرة وأحزاب متنافرة وتعصبات متعثرة وأحوال متدهورة، ولا ينبئك عن هذا مثل ما تراه في عصرك من البوائق والغوائل الجسام؛ بسبب ما يدعو إليه علماء البدع والتحزب على مختلف أصنافهم.

فالله الله في التعلم على أيدي أهل السنة وسفرائهم، إن التعلم على أيديهم غذاء وشفاء ودواء ونشاط وقوى، ونور وهدى.



ومن أسباب رفع العلم اتباع اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من أهل الكفر

التشبه بأعداء الإسلام بوابة إلى الجهل بالإسلام ومحاربته، وهذا من أعظم ما يؤدي إلى رفع العلم وذهابه، وقد حذر النبي ﷺ غاية التحذير من التشبه بالكفار فقال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**» رواه أبوداود (٤٠٣١)، وأحمد ٢/ ٩٢، وابن أبي شيبة (١٩٤٠١)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (١٢٣١)، وأخرجه الطبراني في "الأوسط" برقم (٨٣٢٣)، وقد جوَّد إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في "الاقتضاء" ١/ ٢٦٩، وصححه العراقي والألباني في "صحيح الجامع" (٦١٤٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "اقتضاء الصراط المستقيم" ١/ ٢٧٠ تعليقًا على هذا الحديث: (وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبِّه بهم).

قلت: التفصيل في الحكم على المتشبهين بالكفار هو السديد، فمنهم من يكون تشبهه معصية أو فسقًا، ومنهم من يكون نفاقًا أو كفرًا، وأيها كان فالتشبه بالكفار ينافي الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وينافي مقصد الشريعة الإسلامية في إنقاذ المسلمين من اتباع أهواء أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾[المائدة:٤٩].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "اقتضاء الصراط المستقيم" ١/ ٢٩٠ وهو يشرح حديث تعجيل الفطر: (وهذا نص في أن ظهور الدين الحاصل بتعجيل الفطر هو لأجل مخالفة اليهود والنصارى. وإذا كانت مخالفتهم سببًا لظهور الدين فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله فتكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة).

ويا لله كم في التشبه بالكفار من مفاسد وأضرار في الدين والدنيا عامة وخاصة، ولقد ولع المسلمون المتشبهون بالكفار بالتشبه بهم في عصرنا بما لم يكن في الحسبان، حتى صار منهم اليميني واليساري والشرقي والغربي، والشيوعي الاشتراكي والعلماني، والداعي إلى الحرية وإلى المساواة، وإلى اتباع الغرب في كل ما هم عليه!! وهذه الأمور كفرية وإلحادية، فهذا التشبه هو منتهى البعد عن الله وعن دينه وعن عباد الله وأوليائه، وقد أبان المؤرخ الكبير ابن خلدون في مقدمته (١٨٤-١٨٥) خطر التشبه وأنه هزيمة نفسية تؤدي إلى الهزيمة الميدانية بين يدي أعداء الإسلام قال رحمه الله: (إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادًا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضًا بذلك عن الغلب... وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر؛ لأنهم الغالبون لهم، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير. إلى أن قال: كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء. والأمر لله. وتأمل في هذا سر قولهم: العامة على دين الملك، فإنه من بابه؛ إذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم).

قلت: فلو لم يكن من التشبه باليهود والنصارى وغيرهم إلا أن المتشبه بهم يقر على نفسه بالنقص في عقله وذكائه، والضعف في إيمانه والفساد في يقينه والعجز في إدراك

منابع سعادته وعزته وإثبات الكمال لعدوه وأحقيته بالإجلال والتعظيم والإكرام والاتباع والاستسلام والخضوع والانقياد، ويقدمه على الله اللطيف الخبير وعلى الرسول الكريم الرحيم لا يعد نفسه بجانب أعداء الله المقلدين شيئًا، بل أسقط نفسه وحكم عليها بعدم الأهلية لشيء من النقد والتصحيح والتحري والتفتيش؛ فكانت عقوبة الله على هذا الصنف هو ما ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[الحشر:١٩].

قال العلامة ابن القيم في "الداء والدواء" ص (٢٤٤): (فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه. والثانية: أنه أنساه نفسه. ونسيانه سبحانه للعبد: إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به ينسيه ذلك جميعه، فلا يخطره بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره، وأيضًا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها، وأيضًا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول بها إلى الفساد والهلاك).

وأيضًا عاقبهم الله بأن سلط عليهم أعداءهم الذين تشبهوا بهم فاستعبدوهم وأذلوهم وسلبوا ملكهم وعزهم، وأذاقوهم سوء العذاب، فهل من مترفع ومتأفف عن اتباع الكفار؟!



ومن أسباب رفع العلم عدم معرفة الشر وأهله مفصلاً ليجتنب

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟! قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟! قال: «**نعم وفيه دخن**»، قلت: وما دخنه؟ قال: «**قوم يهدون**

بغير هدي، تعرف منهم وتنكر» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: «هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك». رواه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧).

قال ابن أبي جمرة: (في الحديث حكمة الله في عباده كيف أقام كلًّا منهم فيما شاء؛ فحبب إلى أكثر الصحابة السؤال عن وجوه الخير؛ ليعملوا بها ويبلغوها غيرهم، وحبب لحذيفة السؤال عن الشر؛ ليجتنبه ويكون سببًا في دفعه عمن أراد الله له النجاة). نقلًا من «الفتح» ١٣/ ٤٧.

وقال العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» عند هذا الحديث ٦/ ٥٤١ برقم (٢٧٣٩): (هذا حديث عظيم الشأن من أعلام نبوته ﷺ ونصحه لأمته، ما أحوج المسلمين إليه للخلاص من الفرقة والحزبية التي فرقت جمعهم، وشتتت شملهم، وأذهبت شوكتهم؛ فكان ذلك من أسباب تمكن العدو منهم، مصداق قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]).

وعند الحافظ أبي خيثمة النسائي في كتابه «العلم» رقم (٧٤): عن أبي البحتري عن حذيفة رضي الله عنه قال: (إن أصحابي تعلموا الخير، وأنا أتعلم الشر). قيل: وما يحملك على هذا؟ قال: (إنه من تعلم مكان الشر يتقه). وإسناده صحيح.

وروى أيضًا ص(٢٨) رقم (١١٤) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه). وسنده صحيح.

وقال العلامة ابن القيم كما في كتابه «الفوائد» ص(١٦٥-١٦٧ ترتيب الحلبي) ما نصه: (فمن لم يعرف سبيل المجرمين، ولم تستبن له، أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم

والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين، ودعا إليها، وكفّر من خالفها، واستحل منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة، ودعا إليها، وكفّر من خالفها.

والناس في هذا الموضع أربع فرق: الفرقة الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علما وعملاً، وهؤلاء أعلم الخلق. الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر، ولها أسلك. الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها فهو يعرف ضدها؛ من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوره على التفصيل... الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع، فعرفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول ﷺ كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصلت له بعض الأشياء. ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عيانًا... والمقصود أن الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك. وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتفائها لآثارها وموجباتها).

قلت: فانظر أين أنت يا مسلم من هذه الأصناف، فلا تطلب لنفسك إلا ما فيه السلامة لدينك، ولا سلامة إلا بالتزود من الفقه في الدين.



ومن أسباب رفع العلم بعد عصر السلف قلة الرحلة في طلبه

لقد حفل عصر السلف بالرحلة في طلب العلم الشرعي حتى رحل من أجل الحديث الواحد الليالي والأيام والأسابيع والشهور كما سيأتي قريبًا، بل لقد كان

بعض المحدثين يطوف في الدنيا في رحلته، ومنهم الآتي أسماؤهم:

١) مكحول الشامي، ذكر الذهبي في التذكرة (١٠٨) أنه قال: (طفت الأرض في طلب العلم... عتقت بمصر، فلم أدع بها علمًا إلا حويته فيما أرى، ثم أتيت العراق، ثم المدينة فلم أدع بها علمًا إلا حويت عليه فيما أرى، ثم أتيت الشام فغربلتها).

٢) أبوبكر محمد بن إبراهيم الأصبهاني المشهور بابن المقرئ قال: (طفت الشرق والغرب مرات، ودخلت بيت المقدس عشر مرات) "الرحلة" للخطيب (٢١٠-٢١١).

٣) الحافظ الكبير محمد بن إسحاق بن منده الأصبهاني، رحل إلى نيسابور، ثم إلى بغداد، ثم إلى دمشق، ثم إلى مكة، ثم إلى مصر وبخارى ومرو، وبلخ وطوق الأقاليم. "الرحلة" للخطيب.

٤) الحافظ الإمام أبو نصر السجزي قال الخطيب في "الرحلة" (٢١٢): (طوف الآفاق في طلب الحديث).

وقد كانوا يصرفون جُلَّ أعمارهم في "الرحلة"، حتى إن منهم من كانت رحلته تستغرق ثلاثين سنة، ومنهم أربعين سنة ومنهم أكثر من ذلك. ومعلوم أن عمر أمة الرسول ﷺ ما بين الستين إلى السبعين، وقل من يجاوز ذلك.

فبعد هذا الجهاد الأكبر في طلب الحديث وفي الطواف بالأرض وبذل النفس والنفيس حصل تراجع وتقهقر وتكاسل وإقبال على الدنيا عند كثير من طلبة العلم في العصور المتأخرة، حتى كان الضعف في هذا الفن أظهر من غيره، قال الحافظ ابن حجر كما في "الجواهر والدرر" ١/ ٨٧: (لا شك أن نقص الاشتغال بكل علم قد وقع بكل قطر، لكن حظ هذا العلم الشريف من هذا النقص أزيد؛ وذلك أن كثيرا من البلاد الإسلامية قد خلت عمن يحققه رواية فضلًا عن الدراية، وما ذلك إلا لركونهم إلى التقليد وقصور هممهم عن محاولة ما يحصل درجة الاجتهاد ولو في بعض دون بعض).



ومن أسباب رفع العلم: التمذهب

القاعدة العظيمة التي يسير عليها أهل الإسلام هي ما اشتهر عن مالك أنه قال: (ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك، إلا النبي ﷺ) قال الألباني: (صححه عنه ابن عبد الهادي في "إرشاد السالك" ١/ ٢٢٧، وقد رواه ابن عبدالبر في "الجامع" ٢/ ٩٢٥ رقم (١٧٦١)، وابن حزم في "أصول الأحكام" ٦/ ١٤٥ من قول الحكم بن عتيبة ومجاهد. وأورده تقي الدين السبكي في "الفتاوى" ١/ ١٤٨ من قول ابن عباس متعجبًا من حسنه ثم قال: وأخذ هذه الكلمة من ابن عباس مجاهد، وأخذها منهما مالك رضي الله عنه، واشتهرت عنه. قلت -أي الألباني-: ثم أخذها عنهم الإمام أحمد فقد قال أبوداود في "مسائل الإمام أحمد" ص (٢٧٦): سمعت أحمد يقول: (ليس أحد إلا ويؤخذ من رأيه ويترك ما خلا النبي ﷺ) اهـ من أصل صفة صلاة النبي ﷺ ١/ ٢٧ حاشية.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السنة" ٥/ ٢٦٢: (إن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا).

فعلى كل مسلم أن يحرص على معرفة الحق والقبول له والسير عليه والتحري له عند الاشتباه. وعلى هذا يسير حتى يلقى الله ويحذر كل الحذر من التمذهب لأحد من الأئمة، ومنذ ضعفت الهمم في تلقي العلم اتجه من اتجه من المتمذهبين للأئمة الأربعة تاركين وراء ظهورهم سنة رسول الله ﷺ وما عليه سلف الأمة مما خالف المذهب، فهؤلاء يأخذ أحدهم بقول عالم ويترك عشرات العلماء، بل مئات العلماء، وأضر تقليد على المسلمين تقليد بعض العلماء بالأخذ بزلاتهم واتباعهم في أخطائهم، وقد حصلت فتن عظيمة بين المسلمين بسبب التمذهب للأئمة الأربعة، وكانت نتائجها تقشعر منها الأبدان وتتفتت لها الأكباد وتبكي منها العيون، ألا وهي انتهاك حرمات

المسلمين بالتكفير لهم والاستحلال للأعراض والدماء والأموال وإزهاق الأرواح. انظر نبذة تدلك على هذا في كتابنا "الكشف المبين عن أصناف المبدلين" مع أن الأئمة الأربعة حذروا من التقليد لهم. قال أبو حنيفة: (فإذا صح الحديث فهو مذهبي).

وبلفظ (لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه). صححه غير واحد من العلماء. وجاء عن أبي حنيفة بلفظ (إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله وخبر رسوله، فاتركوا قولي).

وأما الإمام مالك فقد سبق أن ذكرنا قاعدته العظيمة: (كل أحد يؤخذ من قوله ويرد، إلا النبي ﷺ).

وصح عن الإمام الشافعي أنه قال: (ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ، وهو قولي) أخرجه الحاكم بسند متصل إلى الشافعي وابن عساكر في "تاريخ دمشق"، وعند الهروي في "ذم الكلام" (٤٧) وأبي نعيم في "الحلية" ٩/ ١٠٧، وابن حبان كما في "الإحسان" ٣/ ٢٨٤ بسند صحيح إلى الشافعي.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: (لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا). انظر أصل صفة صلاة النبي للألباني ١/ ٣٢ حاشية.

ولابن القيم كلام نفيس حول ضرر التقليد للأئمة الأربعة وغيرهم قال في "إعلام الموقعين" ٢/ ٢٢٧-٢٢٨: (الوجه العشرون: أن فرقة التقليد قد ارتكبت مخالفة أمر الله وأمر رسوله وهدي أصحابه وأحوال أئمتهم، وسلكوا ضد طريق أهل العلم، أما أمر الله فإنه أمر برد ما تنازع فيه المسلمون إليه وإلى رسوله، والمقلدون قالوا: إنما نرده إلى من قلدناه؛ وأما أمر رسوله فإنه ﷺ أمر عند الاختلاف بالأخذ بسنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين، وأمر أن يتمسك بها، ويعض عليها بالنواجذ، وقال

المقلدون: بل عند الاختلاف نتمسك بقول من قلدناه، ونقدمه على كل ما عداه، وأما هدي الصحابة فمن المعلوم بالضرورة أنه لم يكن فيهم شخص واحد يقلد رجلًا واحدًا في جميع أقواله، ويخالف من عداه من الصحابة، بحيث لا يرد من أقواله شيئًا، ولا يقبل من أقوالهم شيئًا، وهذا من أعظم البدع وأقبح الحوادث؛ وأما مخالفتهم لأئمتهم فإن الأئمة نهوا عن تقليدهم وحذروا منه كما تقدم ذكر بعض ذلك عنهم. وأما سلوكهم ضد طريق أهل العلم فإن طريقهم طلب أقوال العلماء وضبطها والنظر فيها وعرضها على القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله ﷺ وأقوال خلفائه الراشدين، فما وافق ذلك منهم قبلوه، ودانوا الله به، وقضوا به، وأفتوا به، وما خالف ذلك منها لم يلتفتوا إليه وردوه، وما لم يتبين لهم كان عندهم من مسائل الاجتهاد التي غايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع، من غير أن يلزموا بها أحدًا، ولا يقولوا: إنها الحق دون ما خالفها، هذه طريقة أهل العلم سلفًا وخلفًا، وأما هؤلاء الخلف فعكسوا الطريق، وقلبوا أوضاع الدين، فزيفوا كتاب الله وسنة رسوله وأقوال خلفائه وأصحابه).

وقال أيضًا في كتاب "الروح" (٢٦٤): (فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم فإنهم كلهم أمروا بذلك فتبعهم حقا من امتثل ما أوصوا به، لا من خالفهم. فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم. ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال، وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلده به ولذلك سمي تقليدًا، بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره).



ومن أسباب رفع العلم اتباع المتشابه

عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران:٧] قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**» رواه البخاري رقم (٤٥٤٧)، ومسلم رقم (٢٦٦٥).

وعن ابن طاوس عن أبيه قال: ذكر لابن عباس رضي الله عنهما الخوارج وما يصيبهم عند قراءة القرآن، فقال رضي الله عنه: (يؤمنون بمحكمه، ويضلون عن متشابهه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[آل عمران:٧]) أخرجه الآجري في الشريعة رقم (٤٧). وإسناه صحيح.

وعن عبيدالله بن أبي يزيد قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما وذكر الخوارج واجتهادهم وصلاتهم قال: (ليس هم بأشد اجتهادًا من اليهود والنصارى، وهم على ضلالة) أخرجه الآجري في الشريعة ١/ ١٤٤ رقم (٤٨). وإسناده صحيح.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[آل عمران:٧] قالت: (كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه، ولم يعلموا تأويله) أخرجه الطبري في "التفسير" ٦/ ٢٠٢ رقم (٦٦٢٦)، وسنده حسن.

وعن قتادة في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[آل عمران:٧] قال: (طلب القوم التأويل فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، واتبعوا ما تشابه منه؛ فهلكوا من ذلك) أخرجه الطبري في "تفسيره" ٦/ ١٨٩، وسنده صحيح.

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما المحكم والمتشابه فقال: (المحكمات: ناسخه، وحلالُه، وحرَامه، وحدوده وفرائضُه، وما يؤمن به ويعمل به، قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[آل عمران:٧] والمتشابهات: منسوخه، ومقدّمه ومؤخره، وأمثاله وأقسامه، وما يؤمن به ولا يُعمل به) أخرجه الطبري في التفسير ٦/ ١٧٥ رقم (٦٥٧٤) وابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ٥٩٢ رقم (٣١٦٧). وسنده حسن على قول من يحسن رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال العلامة ابن القيم في "إعلام الموقعين" ٢/ ٢٩٤: (وأما طريقة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث كالشافعي والإمام أحمد ومالك وأبي حنيفة وأبي يوسف والبخاري وإسحاق فعكس هذه الطريق، وهي أنهم يردون المتشابه إلى المحكم، ويأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه ويبينه لهم فتتفق دلالته مع دلالة المحكم وتوافق النصوص بعضها بعضًا ويصدق بعضها بعضًا؛ فإنها كلها من عند الله، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه ولا تناقض... ولهذا الأصل أمثلة كثيرة أصولية وفروعية).

قلت: آفة أهل البدع والتحزب اتباع المتشابه وجعله محكمًا، بل ومقدمًا على المحكم، ومن وقع في هذا ضل وأضل غيره، وهلك وأهلك غيره، وزاغ وأزاغ غيره؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

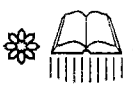

ومن أسباب رفع العلم كثرة الجدال

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**». ثم تلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٨] رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨) وصححه الألباني كما في تعليقه على "المشكاة" (١٨٠) والوادعي في "الصحيح المسند" رقم (٤٧٩).

ولما كان الإقبال على الجدل مفسدة عظيمة أكثر السلف من التحذير منه، قال عمر بن عبدالعزيز: (من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل) أخرجه ابن بطة

في «الإبانة» رقم (٥٦٦، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٧)، وابن عبدالبر في «الجامع» رقم (١٧٧٠)، وهو صحيح، نعوذ بالله من هذا التنقل.

وعن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة:١٤] قال: (الخصومات، والجدال في الدين) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» رقم (٥٨٨) وابن عبدالبر رقم (١٧٧٢) وسنده صحيح.

وعن العوام بن حوشب قال: (إياكم والخصومات في الدين فإنها تحبط الأعمال) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٧٧٣)، وسنده صحيح.

وعن بكر بن مضر قال: (إذا أراد الله بقوم شرًّا ألزمهم الجدل ومنعهم العمل) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٧٧٧)، وسنده صحيح.

وقال الفزاري: سئل عمر بن عبدالعزيز عن قتال أهل صفين فقال: (تلك دماء كف الله عنها يدي، لا أريد أن ألطخ بها لساني) أخرجه ابن عبدالبر في «الجامع» رقم (١٧٧٨) وسنده حسن.

قلت: لله درك يا عمر، ما أعمر قلبك بالخير، وعقلك بالرشد، وإدراكك بالسداد، فأين المعتوهون من هذا التأصيل العُمَري، ما وجدوا بدًّا إلا الطعن في خيار المسلمين ألا ساء ما يفعلون.

وعن ابن الحنفية قال: (لا تنقضي الدنيا حتى تكون خصوماتهم في ربهم) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» رقم (٦١٦، ٦١٧)، وابن عبدالبر في «الجامع» رقم (١٧٨١)، وسنده صحيح. وقد ورد هذا الأثر مرفوعًا ولا يصح.

وعن الجارودي قال: (مرض الشافعي رحمه الله بمصر مرضة ثقل فيها، فدخل عليه قوم منهم حفص الفرد، فكل منهم يقول له: من أنا؟ حتى قال له حفص الفرد: من أنا يا أبا عبد الله؟ فقال: أنت حفص الفرد، لا حفظك الله ولا كلاك ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه!) أخرجه ابن عبدالبر في «الجامع» رقم (١٧٩١)، وهو صحيح. قلت: حفص هذا من أهل الكلام والجدال العظيم.

وقال الشافعي أيضًا في أهل البدع الكلامية: (حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر والقبائل، هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام) أخرجه ابن عبدالبر في «الجامع» رقم (١٧٩٤)، وهو صحيح.

وقال الحسن البصري: (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم) أخرجه ابن عبدالبر في «الجامع» رقم (١٨٠٣)، وسنده جيد إن كان هشام بن حسان سمع من الحسن.

وقد نقل غير واحد من أهل العلم الإجماع على ترك الجدل، خصوصًا في أسماء الله وصفاته، قال البغوي في «شرح السنة» ١/ ٢١٦: (واتفق علماء السلف من أهل السنة على النهي عن الجدال والخصومات في الصفات، وعلى الزجر عن الخوض في علم الكلام وتعلمه).

وقال ابن عبدالبر في «الجامع» تحت رقم (١٧٩٩): (أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع في طبقات الفقهاء، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه ويتفاضلون فيه بالإتقان والمَيْزِ والفهم).

فخلاصة القول: أن من علامات أهل البدع والتحزب الإكثار من الجدال والإغراق فيه؛ من أجل اتفاق شبههم. فكل من جادل بالباطل فهو المستحق للذم وهو الجاني على العلم والمضيع للوقت والمفسد للأخوة والمحبة والصداقة، وهو الجاهل الأحمق والبليد الأخرق. فكل عاقل يترفع عن هذا، فإن دعت المصلحة الشرعية إلى الجدال والمناظرة فليكن ذلك حسب المصلحة وجوبًا أو استحبابًا أو جوازًا وليكن بالضوابط المعتبرة والقواعد المحررة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» ٢٠/ ١٦٤-١٦٥: (فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين).



ومن أسباب رفع العلم عدم تدبر كلام الله وكلام رسوله ﷺ

تلقي العلم بدون تدبره أساس كل ضلال؛ لأن الله يقول مخاطبًا الكفار: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨] فمفهوم الآية أنهم لو تدبروا لآمنوا وسلموا لله.

فأساس ضلال الفرق والأحزاب والأفراد في أمة الإسلام عدم تدبر كلام الله وكلام رسوله، واعتبر بقول الرسول ﷺ لزياد بن لبيد: «**ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأظنك أفقه رجل في المدينة، أما ترى اليهود عندهم التوراة يقرءونها ولا ينتفعون منها بشيء، والنصارى عندهم الإنجيل يقرءونها ولا ينتفعون منها بشيء**» سبق تخريجه.

واعتبر أيضًا بما قاله النبي ﷺ في الخوارج عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم، ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» رواه البخاري رقم (٩٠٥٨) واللفظ له، ومسلم رقم (١٠٦٤).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في ذي الخويصرة وأصحابه: «**... إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية**» رواه مسلم (١٠٦٣). فعدم تدبر القرآن والسنة بلية الخوارج، وبلية كل فرق الضلال!!

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: (ليقرأن القرآن أقوام يقيمونه كما يقام القدح، ولا يدعون منه ألفًا، ولا يجاوز إيمانهم حناجرهم) رواه سعيد بن منصور ١/ ٢٤٩ ورجاله ثقات.

وللعلامة ابن القيم كلام جيد في "مفتاح دار السعادة" ١/ ٥٥٣ أبان فيه مسيس الحاجة إلى تدبر القرآن قال: (فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو

الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه. فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح).

ولله در الشاعر القائل:

فتدبر القرآن إن رُمْتَ الهدى ... فالعلم تحت تدبر القرآن

بل الله يقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] فالله الله في تدبر كلام الله والتفكر في معانيه والنظر في أوله وآخره وفي سياقه وسباقه، وأعد التفكر مرة بعد مرة وكرة بعد كرة، وأبشر بالفتح عليك من الله، قال العلامة ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" ١/ ٥٤٥: (فهاهنا خمسة أمور: الفكر وثمرته العلم، وثمرتها الحالة التي تحدث للقلب، وثمرة ذلك الإرادة، وثمرتها العلم، فالفكر إذًا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها). اهـ

ولا يخفى على اللبيب أن فهم كلام الله وكلام رسوله أهم من حفظه، ولهذا دعا الله إلى تدبر كلامه وأمر بذلك، ولم يأمر بحفظه عن ظهر قلب. وحث رسول الله ﷺ على التفقه في الدين فقال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**» رواه البخاري رقم (٧١) ومسلم رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية رضي الله عنه ولم يقل: يحفِّظه.

وقال الحافظ أبوعلي النيسابوري: (الفهم عندنا أَجَلُّ من الحفظ)، "تاريخ الإسلام" للذهبي ٧/ ٣٤٩.

وقال الحافظ حمزة السهمي: (قلت لأبي بكر بن عبدان: أيُش الفرق بين الدراية والحفظ؟ فقال: الدراية فوق الحفظ)، "سؤالات حمزة" رقم (٣٧٩).

ومن رزقه الله الفهم والحفظ فهذا هو الكمال الذي لا يجتمع إلا في أفراد من الناس.

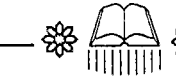

ومن أسباب رفع العلم عدم الرجوع إلى أهل العلم عند الفتن

شؤم الفتن عظيم وشرهن جسيم وعواقبهن وخيمة، فمن عرض نفسه للفتن فلا يأمن أن تنسفه أو تعثره؛ لأن الفتن تمنع من فهم الحق أو قصده أو القيام به، فمن ابتلي بالفتنة فهو معرض لذهاب دينه ودنياه. وانظر ما تفعله الفتنة الواحدة.

عن عبد الله بن أبي هذيل قال: قال حذيفة رضي الله عنه بعد مقتل عثمان: (اليوم نزل الناس حافة الإسلام، فكم من مرحلة قد ارتحلوا عنه!! قال: وقال ابن أبي الهذيل: والله لقد جار هؤلاء القوم عن القصد حتى إن بينه وبينهم وعورة، ما يهتدون له وما يعرفونه). رواه ابن أبي شيبة ٨/ ٦٨٣، وإسناده صحيح.

فإذا كان هذا فعل فتنة واحدة، فكيف حال من هو عرضة للفتن ليل نهار وفي الحضر والأسفار؟ فمن لم يرجع إلى أهل العلم عند الفتن - لأنهم يدركونها قبل وقوعها - لم يدر كيف ذهب دينه، فكن على استعداد في الرجوع إليهم.

قال الحسن البصري رحمه الله: (إن الفتنة إذا أقبلت عرفها العالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل) أخرجه أبونعيم في "الحلية" ٩/ ٢٤، وابن سعد في "الطبقات" ٧/ ١٦٦، والبخاري في "التاريخ" ٤/ ٣٢٢، والدِّينَوَرِي في "المجالس" ٦/ ٨٦-٨٧، وهو أثر حسن.

قلت: ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[القصص:٨٠]. فالعلماء قالوا هذا القول لما فتن الناس بملك قارون، فلم يقبل أولئك المنصوحون هذه النصيحة الغالية؛ فبقوا على اغترارهم وجهلهم. فلما خسف الله بقارون قالوا: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[القصص:٨٢].

فاعرف مِنَّةَ الله عليك -يا مسلم- بوجود علماء الحديث والرجوع إليهم كما عرفها أهل البحث عن الحق، قال عبيد الله بن عمر العمري: (لقد من الله علينا بنافع). أخرجه ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" ٨/ ٤٥٢، وفيه نعيم بن حماد، فيه كلام يسير من جهة حفظه.

وقال عبدالله بن وهب: (لولا مالك والليث هلكت) أخرجه الخطيب في "التاريخ" ١٣/ ٧.



ومن أسباب رفع العلم تعلم المولدين له

إذا تلقى العلم الشرعي الأعاجم ولم يقبلوا على تعلم اللغة العربية حتى يحسنوها، فإنهم بسبب ما عندهم من العجمة يدخلون في الدين ما ليس منه، فكيف لو كانوا على طباع ذميمة وأخلاق دنيئة؟! فالمصيبة أعظم. ولقد كان السلف يخافون على العلم من هذا الصنف.

فعن عروة بن الزبير ﷺ قال: (ما زال أمر بني إسرائيل معتدلًا ليس فيه شيء، حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم أبناء النساء التي سبت بنو إسرائيل من غيرهم، فقالوا فيهم بالرأي فأضلوهم) أخرجه الدارمي في سننه ١/ ٢٤١ رقم (١٢٢) واللفظ له، وابن عبدالبر في "الجامع" رقم (٢٠١٥)، والبيهقي في "معرفة السنن والآثار" ١/ ١٨٨/ ٣٣٥ وفي "المدخل"، والهروي في "ذم الكلام" ١/ ٣٥٤-٣٥٥، والفسوي في ذيل "المعرفة والتاريخ" ٣/ ٣٩٣، و"تاريخ بغداد" ١٣/ ٣٩٤، وهو صحيح ولم يصح مرفوعًا، ولم يصح عن عمر بن عبدالعزيز.

وعن الفريابي قال: (كان سفيان إذا رأى هؤلاء النبط يكتبون العلم يتغير وجهه، فقلت له: يا أبا عبد الله، نراك إذا رأيت هؤلاء يكتبون العلم يشتد عليك؟! فقال: كان العلم في العرب وفي سادة الناس، فإذا خرج عنهم وصار إلى هؤلاء -يعني: النبط

والسفلة- غيّر الدين)، أخرجه ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" رقم (١٠٧٢)، والخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي والسامع" رقم (٣٧١)، وسنده صحيح.

وهذا الذي خشيه السلف قد حصل. ويدل على ذلك ظهور دعاة أهل البدع من قدرية وغيرهم من العجم.

ونأسف بسبب ما هو حاصل من سابق ومن لاحق من إقبال بعض أبناء المسلمين على تعلم لغات الأعاجم، وهم جاهلون باللغة العربية، فهذا أيضًا له آثار سيئة.

وأما من تعلم من الأعاجم العلم الشرعي، وتعلم اللغة العربية فصار يتكلم بها ويؤلف على منوالها، ورزق الاتباع لمنهج النبوة فأكرم به وأنعم، فقد نبغ على النمط المذكور أفذاذ وجهابذة نُقَّادٌ من عهد الرسول ﷺ إلى ساعتنا هذه، تارة يقلون وتارة يكثرون. وهانحن نعتمد بعد القرآن على صحيحي البخاري ومسلم، وهما من الأعاجم!!



ومن أسباب رفع العلم ترك التعلم من قبل أصحاب الأفهام الجيدة

ينبغي لمن رزقه الله فهمًا جيِّدًا أن يقبل على تعلم العلم النافع ولا يضيع نفسه روى، البيهقي في "المدخل" ص(٣٥١) رقم (٦٨٧)، والخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي والسامع" ١/ ٣٢٦ عن مالك قال: (كان ربيعة يقول: ما ينبغي لأحد يعلم أن عنده شيئًا من العلم يضيع نفسه)، وسنده صحيح.

قال الحافظ في "الفتح" ١/ ٢٣٤: (ومراد ربيعة أن من كان فيه فهم وقابلية للعلم لا ينبغي له أن يهمل نفسه؛ فيترك الاشتغال، لئلا يؤدي ذلك إلى رفع العلم).

وقال ابن المنير في كتابه "المتواري على تراجم البخاري" ص (٦١): (إن صاحب الفهم إذا ضيع نفسه فلم يتعلم أفضى إلى رفع العلم؛ لأن البليد لا يقبل العلم، فهو عنه مرتفع. فلو لم يتعلم الفهم لارتفع العلم عنه أيضًا، فيرتفع عمومًا، وذلك من

الأشراط التي لا تقارن في الوجود إلا شرار الخلق. فعلى الناس أن يتوقوها ما أمكن).

فالله الله يا أيها الشاب في الإقبال على طلب العلم الشرعي؛ فإن الله جاعل لك خيرًا بإذنه وتوفيقه.



ومن أسباب رفع العلم تلقيه من الصحف

الافتتان بتلقي العلم من الصحف في عصرنا أكبر منه في العصور الماضية، كيف لا وقد ملئت الساحة الإسلامية في كل دولة بالصحف والجرائد والمجلات؟! وما هذا إلا بسبب الإقبال على قراءتها. ولا تنس أن غالب هذه الصحف إما تابعة للدول تنطق بلسانها وتخدم سياستها، والغالب على سياسة الدول في عصرنا: الانحراف، وإما تابعة لأحزاب إما كفرية وإما بدعية؛ فهي تنمق ما عليه الأحزاب من كفر وإلحاد أو ضلال وابتداع، فماذا يرجو المسلم من وراء هذه الصحف والجرائد والمجلات من فهم سديد وفقه رشيد؟! ناهيك أن بعضها مستأجرة لأرباب الباطل، وعميلة مع الأعداء تروج أنواعًا من الشرور والإلحاد والكفر وغير ذلك. فبسبب انتشار هذه الصحف في الساحة حصل عزوف عن تلقي العلم النافع على أيدي أهله، وظن من ظن ممن اعتمد على الصحف والجرائد والمجلات أنه قد صار فقيه الواقع ولا يحتاج إلى الفقه في الدين، والحقيقة أنه لا خبرة له بفقه الواقع؛ لأن الاعتماد على الصحف والجرائد غاية ما توصل إليه الجهل المركب، وهو معرفة الأمور على غير حقيقتها. ويكثر التناقض عند أرباب الصحف والمجلات المستأجرة؛ إذ هي تدور مع أربابها كيف داروا؛ فإن لله وإنا إليه راجعون.



ومن أسباب رفع العلم التنفير عن علماء السنة والجماعة والحيلولة بينهم وبين المسلمين

نواب إبليس هم الذين ينفرون المسلمين عن علماء أهل السنة عن دروسهم وخطبهم ومحاضراتهم وعن الزيارة لهم، ولهؤلاء الضُّلَّال والمنحرفين الجهال أساليب ووسائل، وعندهم طرق متنوعة يسلكونها للحيلولة بين أبناء المسلمين وبين علماء منهاج النبوة.

ومن ذلك ما ذكره الذهبي في "السير" ٦/ ٣٩٥-٣٩٧: (عن أبي يوسف قال: قال أبو حنيفة: لما أردت طلب العلم، جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها، فقيل: تعلم القرآن، فقلت: إذا حفظته فما يكون آخره؟ قالوا: تجلس في المسجد فيقرأ عليك الصبيان والأحداث، ثم لا يلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو مساويك؛ فتذهب رئاستك!!).

قلت: من طلب العلم للرئاسة قد يفكر في هذا، وإلا فقد ثبت قول المصطفى صلوات الله عليه: «**أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه**» أخرجه البخاري رقم (٥٠٢٨) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه. يا سبحان الله! وهل محل أفضل من المسجد؟ وهل نشر لعلم يقارب تعليم القرآن؟ كلا والله، وهل طلبة خير من الصبيان الذين لم يعملوا الذنوب؟ وأحسب هذه الحكاية موضوعة، ففي إسنادها من ليس بثقة.

تتمة الحكاية: قال: (قلت: فإن سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن في الدنيا أحفظ مني؟ قالوا: إذا كبرت وضعفت، حدثت واجتمع عليك هؤلاء الأحداث والصبيان، ثم لم تأمن أن تغلط، فيرموك بالكذب، فيصير عارًا عليك في عقبك. فقلت: لا حاجة لي في هذا).

قلت: الآن كما جزمت بأنها حكاية مختلقة، فإن الإمام أبا حنيفة طلب الحديث وأكثر منه في سنة مائة وبعدها، ولم يكن إذ ذاك يسمع الحديث الصبيان، هذا

اصطلاح وجد بعد ثلاثمائة سنة، بل كان يطلبه كبار العلماء، بل لم يكن للفقهاء علم بعد القرآن سواه، ولا كانت قد دونت كتب الفقه أصلاً. ثم قال: قلت: أتعلم النحو. فقلت: إذا حفظت النحو والعربية ما يكون آخر أمري؟ قالوا: تقعد معلمًا فأكثر رزقك ديناران إلى ثلاثة. قلت: وهذا لا عاقبة له. قلت: فإن نظرت في الشعر فلم يكن أحد أشعر مني؟ قالوا: تمدح هذا فيهب لك، أو يخلع عليك، وإن حرمك هجوته. قلت: لا حاجة فيه. قلت: فإن نظرت في الكلام، ما يكون آخر أمره؟ قالوا: لا يسلم من نظر في الكلام من مشنعات الكلام، فيرمى بالزندقة، فيقتل، أو يسلم مذمومًا. قلت: قاتل الله من وضع هذه الخرافة!! وهل كان في ذلك الوقت وجد علم الكلام؟! قال: قلت: فإن تعلمت الفقه؟ قالوا: تسأل وتفتي الناس، وتطلب للقضاء، وإن كنت شابًا. قلت: ليس في العلوم شيء أنفع من هذا، فلزمت الفقه وتعلمته).

وقال أيضًا في المصدر المذكور ١٥/ ٥٥٩: (قال إبراهيم بن أحمد الطبري: سمعت الخلدي يقول: مضيت إلى عباس الدوري، وأنا حدث، فكتبت عنه مجلسًا، وخرجت، فلقيني صوفي، فقال: أيْشٍ هذا؟ فأريته، فقال: ويحك، تدع علم الخرق، وتأخذ علم الورق؟! ثم خرق الأوراق، فدخل كلامه في قلبي، فلم أعد إلى عباس، ووقفت بعرفة ستًّا وخمسين وقفة. قلت: ما ذا إلا صوفي جاهل يمزق الأحاديث النبوية، ويحض على أمر مجهول؛ فما أحوجه إلى العلم!).

فحذار حذار أن يصغي أبناء المسلمين لهؤلاء؛ فإنهم قطاع الطرق، ولله در ابن الجوزي حيث قال: (قطاع الطرق أربعة: ملحد يشكك في دين الله، ومبتدع يزيغك عن سنة رسول الله ﷺ، وغافل ينسيك ذكر الله، وعاص يجيزك على المعاصي). فكم انقطع من المسلمين عن الإقبال على ربهم والاتباع لنبيهم والاقتداء بالسلف الصالح بسبب الاستجابة لأهل البدع والتحزب.

ألا وإن طريقة أهل البدع والتحزب في عصرنا -خصوصًا حزب الإخوان- التشويه بأهل السنة علماء ودعاة وطلابًا ومحبين بأنواع من الطعن، ويكفي أن ننقل هاهنا ما

اشتهر من الأقوال في علماء أهل السنة الدالة على الازدراء بهم: علماء قشور، علماء حيض ونفاس، علماء البلاط، علماء محنطون، علماء القرون الوسطى، علماء الكتب الصفراء، علماء لا يفقهون الواقع، وغير ذلك. ألا وليعلم هؤلاء أن قدوتهم في هذا هو كل ضال غوي وكل فاجر شقي من قديم الزمان، فهاهو عمرو بن عبيد المعتزلي يقول كما في "الضعفاء" للعقيلي ٥/١٧٥٦: (ألا تسمعون، ما كلام الحسن وابن سيرين عندما تسمعون إلا خرقة حيض مطروحة!) بل بلغ بهم الأمر إلى أن يتمنوا موت علماء أهل السنة، وقد سبقهم إلى هذا المبتدعة من عصر السلف، فقد ذكر اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة رقم (٣٥) عن حماد بن زيد قال: (حضرت أيوب السختياني وهو يغسل شعيب بن الحَبْحَابِ وهو يقول: إن الذين يتمنون موت أهل السنة يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون) وقدوتهم في ذلك من قال الله فيهم من المشركين والكفار: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة:٣٢] ولا تنس أن حزب الإخوان وفروعه يقوم على التنظيم السري؛ فهو مشتمل على المكر والكيد والخداع والكذب والتلبيس والغش وغير ذلك، ومما يمليه عليهم تنظيمهم السري أنهم إذا أرادوا اختطاف الأشخاص عملوا دراسة لكيفية اختطافه إليهم. وعندهم عدة طرق معدة للاختطاف حتى إنهم يأتون لمن يحب العبادة من باب الإعانة على العبادة والمتعلم من باب الإعانة على العلم، ولكل شخص يسلطون عليه من يفسده ويصطاده حسب ما يناسبه؛ كفانا الله شر الحزبية!



ومن أسباب رفع العلم النسيان له

نسيان العلم آفة يبتلى بها كثير ممن نالوا حظًا من العلم، ولولا هذا النسيان لكان العلم كثيرًا في كل عصر، وقد أرشد السلف إلى المحافظة على العلم من النسيان،

وذلك بالمذاكرة له والمدارسة، ومجالسة أهله ومراجعة المحفوظ وتكرار ذلك.

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (تزاوروا وتذاكروا هذا الحديث؛ فإنكم إن لم تفعلوا يَدْرُسْ علمكم)، أخرجه أبوبكر بن أبي شيبة ٨/ ٥٢٢، والدارمي ١/ ٤٨٨، والخطيب في "الجامع" ١/ ٢٣٦-٢٣٧ رقم (٤٦٥-٤٦٦)، وابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" رقم (٦٢٣) واللفظ له. وهو صحيح.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إن لكل شيء آفة، وآفة العلم النسيان) أخرجه الدارمي ١/ ٤٨٧ رقم (٦٤٧) واللفظ له، والرامهرمزي في "المحدث الفاصل" ص(٥٤٥)، والخطيب في "الجامع" رقم (٤٦٨)، وابن عبدالبر في "الجامع" رقم (٧٠٦)، وسنده صحيح.

وعن الزهري قال: (إن للعلم غوائل فمن غوائله أن يترك العالم حتى يذهب بعلمه، ومن غوائله النسيان، ومن غوائله الكذب فيه، وهو أشد غوائله) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" ٣/ ٣٦٤، وهو حسن.

وعن الحسن قال: (غائلة العلم: النسيان وترك المذاكرة)، أخرجه الدارمي ١/ ٤٨٨ رقم (٦٤٩)، وابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" ٢/ ٣٦٢، وإسناده جيد.



ومن أسباب رفع العلم قلة اقتناء الكتب النافعة

قلة اقتناء الكتب القيمة مؤد إلى قلة العلم والتقصير في طلبه والتأخر عن التضلع منه وعدم البروز فيه، وهذا من نقص العلم ورفعه بلا ريب، فلهذا ينبغي أن يحرص طلاب العلم وأربابه على اقتناء الكتب والإكثار منها ما أمكن، وليستضيئوا بحث أهل العلم على ذلك.

قال الإمام الكبير يحي بن معين: (ينبغي للمحدث أن يتزر بالصدق، ويرتدي

بالكتب) «الكفاية» للخطيب (٢٦٦).

وقال الحافظ مروان بن محمد: (ثلاثة ليس لصاحب الحديث عنها غنى: الحفظ والصدق وصحة الكتب، فإن أخطأت واحدة وكانت فيه ثنتان لم يضره إن أخطأ الحفظ ورجع إلى صدق وصحة كتب لم يضره) «الجرح والتعديل» و«الكامل» لابن عدي ١/ ١٥٩، و«الكفاية» للخطيب (٢٦٥).

ولله در الخليل بن أحمد فقد قال: (اجعل ما في كتبك رأس مالك وما في قلبك للتفقه) «تقييد العلم» للخطيب (١٤٠-١٤١).

وقال ابن المقرئ: (مشيت بسبب نسخة مفضل بن فضالة سبعين مرحلة، ولو عرضت على خباز برغيف لم يقبلها) الرحلة في طلب الحديث للخطيب (٢١٠).

أيها القارئ عوِّد نفسك صحبة الكتب والحياة معها والتفرغ للقراءة فيها؛ فهي أحسن أنيس وخير جليس، لا تلهيك بل تنجيك، ولا تضعفك بل تقويك، ولا تغضبك بل تسرك، ولا تتعبك بل تريحك، فاجعل شراء الكتب واقتناءها من مهماتك، واجعل ذلك قسيم رزقك وعيشك، والله المستعان.

ومن أسباب رفع العلم التسليم بأن الشريعة الإسلامية لا تفي بكل ما يحتاجه الناس

من الانحراف العظيم: الجهل بكمال الشريعة الإسلامية وبشموليتها لكل ما تصلح به أحوال عموم الخلق في كل زمان ومكان، وحال ومآل.

قال العلامة ابن القيم في «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» ١/ ٣٠-٣١ وهو يتحدث عمن عطلوا كثيرا من الحدود الشرعية؛ ظنًّا منهم قصور الشريعة في ذلك: (وهذا موضع مزلة أقدام ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك ومعترك صعب فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرءوا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة

قاصرة لا تقوم بمصالح العباد محتاجة إلى غيرها، وسدوا على نفوسهم طرقًا صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له وعطلوها، مع علمهم وعلم غيرهم قطعا أنها حق مطابق للواقع؛ ظنًّا منهم منافاتها لقواعد الشرع... والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة وتقصير في معرفة الواقع وتنزيل أحدهما على الآخر، فلما رأى ولاة الأمور ذلك، وأن الناس لا يستقيم لهم أمرهم إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة، أحدثوا من أوضاع سياساتهم شرًّا طويلًا وفسادًا عريضًا فتفاقم الأمر وتعذر استدراكه، وعز على العالمين بحقائق الشرع تخليص النفوس من ذلك، واستنقاذها من تلك المهالك).



رفع العلم بسبب المعاصي

روى أبو داود رقم (٤٦٩٠) والطبري في تهذيب الآثار رقم (٩١٠) والحاكم ١/ ٢٢ وابن منده في الإيمان ٢/ ٥٧٩ رقم (٥١٩) وابن نصر في "تعظيم قدر الصلاة" رقم (٥٣٦) واللالكائي في السنة رقم (١٨٦٤) والبيهقي في الشعب رقم (٤٩٧٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان كان عليه كالظلة، فإذا أقلع رجع إليه الإيمان**» صححه العراقي والحافظ ابن حجر في الفتح ١٢/ ٧٥ والألباني في الصحيحة رقم (٥٠٩) رحم الله الجميع.

وقد جاء موقوفًا، والمرفوع أصح. وجاء بلفظ «**من زنى وشرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه**» رواه الحاكم ١/ ٢٢.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (إني لأحسب الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنب يعمله) أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (٨٣)، وأبونعيم في "الحلية" ١/ ١٣١، وأبوخيثمة في "العلم" (١٣٢)، والطبراني في "الكبير" ٩/ ٢١٢ رقم (٨٩٣٠)، والبيهقي في "المدخل" رقم (٤٨٧)، وابن عبدالبر في "الجامع" (١١٩٥)، والخطيب

في "الجامع" رقم (١٨٥٠) وفي الاقتضاء (٩٦). قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" ١/ ١٩٩: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثوقون، إلا أن القاسم لم يسمع من جده).

قلت: علة هذا الأثر الانقطاع، لأن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود لم يسمع من ابن مسعود رضي الله عنهما، وقد رواه وكيع في "الزهد" (٢٦٩) من طريق الحسن ابن سعد عن عبدالرحمن بن عبدالله، عن ابن مسعود وعبد الرحمن قد سمع من أبيه.

وأخرج البيهقي في "الشعب" رقم (١٦٠٤) عن علي بن خشرم قال: (شكوت إلى وكيع قلة الحفظ فقال: استعن على الحفظ بقلة الذنوب) إسناده جيد، وقد أخرجه الخطيب في الجامع ٢/ ٢٥٨ رقم (١٧٨٥)، وفيه زيادة لبعضهم:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأومأ لي إلى ترك المعاصي

وقال بأن حفظ الشيء فضل ... وفضل الله لا يُدْرِكُهُ عاصي

قلت: وقد اشتهر أن هذه الأبيات للإمام الشافعي رحمه الله، إلا أنها لا تصح إليه.

وقال أبو بكر بن العربي في "عارضة الأحوذي" ١٠/ ٨٧: (فقد يذنب الرجل حتى يذهب ذنبه عمله).

وقد ذكر ابن الجوزي في "ذم الهوى" قصصًا دلت على عقوبة الله على من باشر بعض المعاصي من طلاب العلم وحفظه القرآن الكريم، ومن ذلك:

ما ذكره في ص(١٢٧) عن أبي عبدالله بن الجلاء قال: (كنت واقفًا أنظر إلى غلام نصراني حسن الوجه، فمر بي أبوعبدالله البلخي فقال: أيش وقوفك؟ فقلت: يا عم ما ترى هذه الصورة تعذب بالنار؟ فضرب بيده بين كتفي وقال: لتجدن غبها ولو بعد حين. قال ابن الجلاء: فوجدت غبها بعد أربعين سنة أُنسيت القرآن).

وذكر أيضًا في نفس المصدر ص(١٢٨) عن أبي الدرداء قال: (كنت مع أستاذي أبي بكر الزقاق، فمر حدث فنظرت إليه فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه فقال: يا بني، لتجدن غبها ولو بعد حين. فبقيت عشرين سنة وأنا أراعي فما أجد ذلك الغب،

فنمت ليلة وأنا متفكر فيه، فأصبحت وقد نسيت القرآن كله).

فليتق الله كل مسلم ومسلمة خصوصًا الدعاة والعلماء وطلاب العلم من قبول المعاصي؛ فإن لها عواقب خطيرة ونهايات بائرة.

رفع العلم بسبب قيام الحكام والأمراء بفتح المجال لعلماء الضلال بنشر ضلالهم

لا أضر على المسلمين من تمكين ولاة الأمر لعلماء الضلال من نشر ضلالهم والدعوة إلى الفتن باسم الإسلام، فهذه بلية أمة الإسلام في العصور الماضية واللاحقة منذ انحرف خلفاء المسلمين، وهذا ما كان النبي ﷺ يخافه على أمته.

فقد روى أبوداود (٤٢٥٢)، والدارمي (٢١٥)، والترمذي (٢٢٢٩)، وأحمد ٥/ ٢٧٨ واللفظ له وغيرهم عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**» والمراد بالأئمة ولاة الأمور، فمتى نفق عليهم الضلال فقبلوا نشره، فلا تسأل عن حال المسلمين بعد ذلك!

واعتبر بما حصل من الخليفة العباسي المأمون من قبول تعريب كتب الفلاسفة ونشرها بين المسلمين على يد المعتزلة والجهمية فنجم عن ذلك كل شر.

قال ابن كثير في "البداية والنهاية" ١٣/ ٢٢٨ سنة ٦٥٧هـ: (وبعد أخذ التتار بغداد عمل الخواجه نصير الدين الطوسي الرصد بمدينة مراغة... وعمل دار حكمة ورتب فيها فلاسفة، ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة دراهم، ودار طب فيها للطبيب في اليوم درهمان، ومدرسة لكل فقيه في اليوم درهم، ودار حديث لكل محدث نصف درهم في اليوم).

ومن ثم فشا الاشتغال بالعلوم الفلسفية وظهر. فبعد سماع الأحاديث النبوية يدرس الفلسفة اليونانية والمناهج الكلامية).

وأوسع تمكين في هذا الباب أضر بالمسلمين هو تمكين الدولة العثمانية للصوفية؛ فقد فتحت لها الباب على مصراعيه؛ فملأت الصوفية بلاد المسلمين بالبدع والشركيات والخرافات، حتى جعلت كبار البدع والشركيات والمعاصي تؤدى على مدار شهور السنة، بل والأسابيع!

وقد كانت بدع الصوفية وشركياتها في إحياء الشرك القبوري الذي هو أساس الشرك وأقدمه وجودًا في البشرية، والذي هو مفسد لأعظم أنواع التوحيد وهو توحيد الألوهية، ولأعظم أنواع العبادات وهي عبودية القلب من إخلاص لله وصدق مع الله وتوكل على الله وثقة بالله ورجاء في الله ورغبة فيما عند الله، وخوف من الله ومراقبة له وتعظيم وحب له، ورضا به ربًّا وإلهًا.

ويشارك الصوفية في هذا الشرك: الرافضة والقرامطة، بل هما المؤسسان لهذا الشرك وغيره من الضلال. ونقل كلام أهل العلم حول هذه المسألة الخطيرة يطول، ولكن أكتفي بما نقله المناوي في «فيض القدير» ٢/ ٢٧٤ عن الراغب أنه قال: (لا شيء أوجب على السلطان من رعاية أحوال المتصدين للرياسة بالعلم فمن الإخلال بها ينتشر الشر ويكثر الأشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر وذلك أن السواس أربعة: الأنبياء: وحكمهم على الخاصة ظاهرهم وباطنهم. والحكماء: وحكمهم على بواطن الخاصة، والوعاظ: وحكمهم على بواطن العامة وصلاح العالم برعاية أمر هذه الساسات لتخدم العامة الخاصة وتسوس الخاصة العامة، وفساده في عكس ذلك. ولما ترشح قوم للزعامة في العلم بغير استحقاق وأحدثوا بجهلهم بدعًا استغنوا بها عامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة، فوجدوا من العامة مساعدة بمشاركتهم لهم وقرب جوهرهم منهم وفتحوا بذلك طرقًا منهدة ورفعوا به ستورًا مسبلة وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوها بالوقاحة وبما فيهم من الشره؛ فبدعوا العلماء وجهلوهم اغتصابًا لسلطانهم ومنازعة لمكانهم فأعزوا بهم أتباعهم حتى وطئوهم بأظلافهم وأخفافهم؛ فتولد بذلك البوار والجور العام والعار).

ومما يقوي قبول الشر في كثير من المسلمين: أنهم ينظرون على علماء الدولة نضرة إعجاب وحسن ظن بهم فيقبلون منهم ما جاءوا به وإن كان باطلًا، ولو أنهم تعرفوا على العلماء المتمسكين بمنهاج النبوة المتجردين عن مجاراة الملوك والسلاطين لكانوا أهدى سبيلًا وأقوم قيلًا.

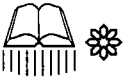

آفات تضر بالعلم وأهله

آفات العلم كثيرة ينبغي أن يتعرفها العلماء وطلاب العلم، ومنها: العجب والغرور والتحديث به من لا يستفيد منه. عن عبدالله بن المختار قال: (نكر الحديث الكذب فيه، وآفته النسيان، وإضاعته أن تحدثه من ليس من أهله) أخرجه ابن عبدالبر في جامعه رقم (٦٩٣). وسنده حسن.

وعن كثير بن مرة الحضرمي قال: (إن عليك في علمك حقًّا، كما أن عليك في مالك حقًّا: لا تحدث العلم غير أهله، فتجهل، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك) أخرجه الدارمي ١/ ٣٨٠ رقم (٣٩٠)، والخطيب في «الجامع» رقم (٧٥٤)، والرامهرمزي ص(٥٧٥)، وابن عبدالبر في «جامعه» رقم (٧٠٨) واللفظ له. وسنده حسن.

وذكر عن الشافعي أنه قال: (المجنون من عرف قدر العلم ثم ضيعه أو توانى فيه حتى فاته). نقلًا من كتاب «عشاق الكتب» ص (٢٤٥).

وقد صح عن غير واحد من السلف أنهم كانوا يحدثون الجواري والصبيان؛ لغرض تقوية الحفظ والمراجعة.

ومن الآفات أيضًا كتمان العلم، والعذاب على فاعله شديد والوعيد أكيد في القرآن والسنة، ولو لم يكن من ذلك إلا قول الرسول ﷺ: «**من سئل عن علم**

فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار" رواه أبوداود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، والحاكم ١/ ١٠١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" رقم (١٢٠).

فيا طالب العلم، يا أيها الداعي إلى الله، قل الحق ولو كان مرًّا، وأظهره وإن كان خفيًّا، واصبر على ما أصابك؛ فإن ذلك من عزم الأمور، واقتدِ بأئمة الدين.

عن يزيد بن هرمز قال: كتب نجدة إلى ابن عباس يسأله عن خمس خلال، فقال ابن عباس: (إن الناس يقولون: إن ابن عباس يكاتب الحرورية، ولولا أني أخاف أن أكتم علمًا ما كتبت إليه) أخرجه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" رقم (١٢). وسنده صحيح.

ومن آفات العلم التباغض بين العلماء والدعاة وطلاب العلم، فهو من الأمراض الخطيرة التي يتحتم على كل مسلم اجتنابه، فمن لم يجتنبه أثمر له أنواعًا من البغي والعدوان.

قال صاحب كتاب "آفات العلم" ص (١٧٣-١٧٤): (والحقد يثمر ثمانية أمور: الأول: الحسد: وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة إن أصابها وتسر بمصيبة إن نزلت به. الثاني: أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن فتشمت بما أصابه من البلاء. الثالث: أن تهاجره وتصارمه أي: تقاطعه، وتنقطع عنه وإن أقبل عليك. الرابع: وهو دونه أن تعرض عنه استصغارًا له. الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر، وهتك ستر. السادس: أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه. السابع: إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه. الثامن: أن تمنعه حقه من أداء دين وصلة رحم أو رد مظلمة. وكل ذلك حرام!).

ومن الآفات عدم الإنصاف وعدم العدل مع الآخرين، ذكر ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" رقم (٨٦٦) عن مالك قال: (ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف).

قلت: يقول مالك هذا وهو في عصر العافية، فكيف حال من يكونون في عصور الضعف في الإيمان، والفساد في اليقين، والانحراف في الفهم، والتعصب للآراء؟!!

فيا أيها المسلم الكريم، أنصف الناس من نفسك مثلما تحب أن ينصفك الناس من أنفسهم، وانشد العدل لك وعليك، وإياك والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة.

ومن الآفات حب الظهور، وحب الظهور يقصم الظهور، فمن لم يعرف هذا الداء الكامن في النفس لم يدر كيف هلك.

قال الذهبي في السير ٤/ ٤٩٤: (ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت، فإن أعجبه الصمت فلينطق، ولا يفتر عن محاسبة نفسه؛ فإنها تحب الظهور والثناء).

وقال أيضًا في نفس المصدر ١٨/ ١٩١-١٩٢ وهو ينصح للدعاة والعلماء: (فليتبع فيها الحق ولا يسلك الرخص، وليتورع، ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليد، فإن خاف ممن يشغب عليه من الفقهاء فليتكتم بها ولا يتراءى بفعلها، فربما أعجبته نفسه، وأحب الظهور، فيعاقب، ويدخل عليه الداخل من نفسه، فكم من رجل نطق بالحق، وأمر بالمعروف، فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده، وحبه للرئاسة الدينية، فهذا داء خفي سار في نفوس الفقهاء).

وكثرة الأدلة من القرآن والسنة المحذرة من الرياء معروفة، وما سقط من سقط بعد أن تعلم وتعثر من تعثر، بل وهلك من هلك من الدعاة والعلماء إلا بسبب تمكن الرياء منهم، قال أبوبكر بن العربي في عارضة الأحوذي ١٠/ ١٢١: (قد يكون العلم هلاكًا على صاحبه إذا طلبه لغير وجه الله).



لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق حتى يقاتل آخرها الدجال

لا يفهم من ذكرنا رفع العلم القلبي واللساني في آخر الزمان أن أمة الإسلام لا يبقى فيها من يقيم الإسلام علما وعملاً به ودعوة إليه ودفاعا عنه، بل تبقى طائفة تقوم بذلك وهي المعروفة في الأحاديث الصحيحة المتواترة بقول الرسول عليه الصلاة

والسلام: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم الدجال**» وقد ذكر تواتر أحاديث الطائفة المنصورة الناجية عدد من العلماء، منهم: ابن تيمية والسيوطي والزبيدي والكتاني، والطائفة المذكورة فسرها أكثر أهل العلم بأنهم: أهل الحديث من أهل السنة والجماعة، ومعنى ذلك أنهم يدخلون فيها دخولًا أوليًا؛ لأنهم هم الذين مكن الله لهم في كل عصر بنشر العلم والدعوة إلى الله وجهاد أهل البدع والضلالات بالحجة والبيان، حتى قال إسحاق بن موسى الخطمي: (ما مكن لأحد من هذه الأمة ما مكن لأصحاب الحديث؛ لأن الله عز وجل قال في كتابه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾[النور:٥٥] فالذي ارتضاه الله قد مكن لأهله فيه، ولم يمكن لأصحاب الأهواء في أن يقبل منهم حديث واحد عن أصحاب النبي ﷺ وأصحاب الحديث يقبل منهم حديث رسول الله ﷺ وحديث أصحابه. ثم إن كان بينهم رجل أحدث بدعة سقط حديثه، وإن كان من أصدق الناس) أخرجه الخطيب البغدادي في "شرف أصحاب الحديث" رقم (٥٥). وسنده جيد.

وقد حاز أهل الحديث الكمال المحمود، قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" ٤/ ٩-١٠: (من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ويمتازون عنهم بما ليس عندهم، فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقًا أخرى مثل المعقول والقياس والرأي والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة والمكاشفة والمخاطبة والوجد والذوق ونحو ذلك. وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها؛ فهم أكمل الناس عقلًا وأعدلهم قياسًا وأصوبهم رأيًا وأسدهم كلامًا وأصحهم نظرا وأهداهم استدلالًا وأقومهم جدلًا وأتمهم فراسة وأصدقهم إلهامًا وأحدهم بصرًا ومكاشفة وأصوبهم سمعا ومخاطبة وأعظمهم وأحسنهم وَجْدًا وذوقًا، وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل).

وفي أحاديث الطائفة المنصورة رد على من قال: (إن الزمان يخلو من مجتهد في الشريعة).

الفصل الرابع:

رفــع القــــرآن

هذا الفصل ظاهر في كبر المصيبة على المسلمين، وأنها أعظم من الرفع المذكور في الفصل الثاني، ولكن لا يخفى على المتفقه في هذه المسألة أن ما في الفصل الأول والثاني هو أساس لرفع القرآن وسببه، فكلما تحققت المحافظة على العلم تأخر رفع القرآن والعكس بالعكس، والأمر لله من قبل ومن بعد!!



رفع القرآن

رفع القرآن الكريم والسنة حادث جلل على أهل الأرض كلهم؛ لأنه منذر بقيام الساعة وخراب العالم، وهذا الرفع نَصَّتْ عليه سنة النبي ﷺ.

فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَدْرُسُ الإسلام كما يدرس وَشْيُ الثوب، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله عز وجل فى ليلة فلا يبقى فى الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة (لا إله إلا الله) فنحن نقولها**»

أخرجه ابن ماجه رقم (٤٠٤٩) واللفظ له والحاكم ٤/٤٧٣ ونعيم بن حماد في الفتن والبزار رقم (٢٨٣٨) من طريق أبي معاوية، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة رضي الله عنه به. قال البزار: وهذا الحديث قد رواه جماعة عن أبي مالك عن ربعي عن حذيفة رضي الله عنه موقوفًا، ولا نعلم أحدًا أسنده إلا أبوكريب عن أبي معاوية.

قلت: أبومعاوية هذا هو محمد بن خازم الضرير، قال فيه الحافظ في «تحرير التقريب»

٣/ ٢٣٤: (أحفظ الناس لحديث الأعمش، وقد يهم في حديث غيره) وهنا أمور:

١) قد توبع أبومعاوية، فقد تابعه أبوعوانة وَضَّاح بن عبدالله الْيَشْكُرِيُّ، واليشكري هذا ثقة ثبت، والمتابعة هذه ذكرها البوصيري في «الزوائد» ٢/ ٣٠٧ رقم (١٤٢٩).

٢) لو سلمنا بأن الراجح رواية الوقف، فيكون له حكم الرفع؛ لأنه لا يقال بالرأي، وحذيفة من الصحابة الذين لم يأخذوا عن أهل الكتاب.

٣) قد صحح الحديث مرفوعًا عدد من أهل العلم، قال الحاكم: (حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وسكت عليه الذهبي، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ١٣/ ٢١: (سنده قوي). وقال البوصيري: (إسناده صحيح). وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٨٧) وشيخنا الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين رقم (٢٩٣). وغير هؤلاء، فهذا التصحيح يفيد أن هؤلاء المصححين وأمثالهم يرجحون الرفع على الوقف.

٤) للحديث شاهد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **لا تقوم الساعة حتى تبعث ريح حمراء من قبل اليمن؛ فيكفت الله بها كل نفس تؤمن بالله واليوم الآخر، وما ينكرها الناس من قلة من يموت فيها: مات شيخ في بني فلان، وماتت عجوز في بني فلان. ويسرى على كتاب الله فيرفع إلى السماء؛ فلا يبقى في الأرض منه آية، وتقيء الأرض أفلاذ كبدها من الذهب والفضة، ولا ينتفع بها بعد ذلك اليوم، يمر بها الرجل فيضربها برجله ويقول: في هذه كان يقتتل من كان قبلنا، وأصبحت اليوم لا ينتفع بها!**» أخرجه ابن حبان في «صحيحه» ١٥/ ٢٦٦، وأبو يعلى في «مسنده» مختصرًا، وفي سنده عبدالغفار بن عبدالله، ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» ٦/ ٥٤ ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وبقية رجاله ثقات؛ فهو صالح للاستشهاد، وأخرجه الحاكم ٤/ ٥٠٦ بلفظ: « **يسرى على كتاب الله فيرفع إلى السماء؛ فلا يصبح في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل ولا الزبور، وينتزع من قلوب الرجال فيصبحون ولا يدرون ما هو**» وصححه، وسنده حسن.

٥) وللحديث آثار تشهد له، ومنها: عن ابن مسعود ﷺ قال: (إن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن ينزع منكم! قال: قلت: كيف ينزع منا وقد أثبته الله في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: يسرى عليه في ليلة واحدة فينزع ما في القلوب، ويذهب ما في المصاحف، ويصبح الناس منه فقراء، ثم قرأ ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[الإسراء:٨٦]) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" رقم (٣٠٦٩٧) واللفظ له، وعبدالرزاق رقم (٥٩٨١)، والطبراني في "الكبير" رقم (٧٦٩٨)، وأخرجه البيهقي في "الشعب" بلفظ: (اقرءوا القرآن قبل أن يرفع؛ فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع) قالوا: هذه المصاحف ترفع، فكيف بما في صدور الناس؟ قال: (يعدى عليه ليلًا، فيرفع من صدورهم، فيصبحون فيقولون: لكأنا كنا نعلم شيئًا ثم يقعون في الشِّعْر). وتقدم أثر أبي هريرة قريبًا.

أخي القارئ رفع القرآن الكريم حدث ليس له نظير لا قبله ولا بعده، وهو حادث رهيب، كيف لا وهو رفع ما في بقائه بقاء الأمة، وفي رفعه نهايتها؟! وبالله عليك كيف يكون حال الناس حينما يصبحون فلا يجدون آية يقرءونها لا في المصحف ولا في الصدور؟! فلباطن الأرض خير من ظاهرها والموت خير من الحياة بدون قرآن. اللهم احفظ علينا دين الإسلام القرآن وسنة سيد الأنام. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رفع القرآن من الآيات العظام

قد يظن ظان أن رفع القرآن الكريم ليس آية من آيات الله الكبرى، ولا علامة كبرى من علامات الساعة؛ معللًا ذلك بأن رفعه لم يذكر في أحاديث العشر الآيات الكبرى قبل قيام الساعة، والأمر ليس كذلك.

قال صديق حسن خان في كتابه "الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة" وهو يتحدث عن علامات الساعة الكبرى ص(١٧٥) وذكر رفع القرآن: (وهو من

أشد معضلات الأمور، قال في البهجة: قرار الأئمة أنه يرفع أولاً من المصاحف، وذلك أنهم يبيتون فيصبحون وليس فيها حرف مكتوب، ثم يرفع من الصدور عقب ذلك). اهـ

وقال السفاريني في كتابه "من علامات القيامة الكبرى" (٩٨): (من علامات الساعة وأشراطها رفع القرآن العظيم، وإنه من أشد معضلات الأمور).

وقال العلامة الألباني في "السلسلة الصحيحة" ١/ ١٧٣ تحت حديث رقم (٨٧): (وفي هذا الحديث نبأ خطير، وهو أنه سوف يأتي يوم على الإسلام يمحى أثره، وعلى القرآن فيرفع فلا يبقى منه ولا آية واحدة، وذلك لا يكون قطعا إلا بعد أن يسيطر الإسلام على الكرة الأرضية جميعها، وتكون كلمته فيها هي العليا. كما هو نص قول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣] وكما شرح رسول الله ﷺ ذلك في أحاديث كثيرة سبق ذكر بعضها).

وقال صاحب كتاب "صحيح أشراط الساعة" ص (٣١٠): (من أشد معضلات الأمور وأخطرها على الأمة رفع القرآن العظيم والذكر الحكيم من المصاحف والصدور، واندراس الإسلام بالكلية).

عقيدة السلف في رفع القرآن

لا ينبغي لمسلم أن يتردد في الإيمان برفع القرآن وعودته إلى المتكلم به والمنزل له وهو الله سبحانه؛ لأن اعتقاد رفعه وعودته إلى الله هو الذي كان عليه السلف ولا يزال عليه من اقتدى بهم من خيار الخلق، وهم أهل الحديث إلى ساعتنا هذه.

فعن عمرو بن دينار قال: (أدركت الناس وقد أدرك أصحاب رسول الله ﷺ فمن دونهم منذ سبعين سنة، كلهم يقولون: الله جل اسمه الخالق وما سواه مخلوق إلا

القرآن فإنه كلام الله تعالى منه خرج وإليه يعود) أخرجه المقدسي في اختصاص القرآن (٦). وسنده صحيح.

وقال سفيان الثوري: (القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، من قال غير هذا فهو كفر).

وسأل رجل سفيان بن عيينة فقال: يا أبا محمد، ما تقول في القرآن؟ فقال: (كلام الله منه خرج وإليه يعود).

وقال أبو بكر بن عياش: (القرآن كلام الله ألقاه إلى جبرائيل، وألقاه جبرائيل إلى محمد، منه بدأ وإليه يعود).

وهذه الآثار الثلاثة صحيحة أخرجها الحافظ ضياء المقدسي في "اختصاص القرآن".

وقال الإمام أحمد بن حنبل: (لقيت الرجال والعلماء والفقهاء بمكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام والثغور وخراسان فرأيتهم على السنة والجماعة، وسألت عنها الفقهاء فكل يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود) المصدر السابق.

وفي المسائل لأبي داود ص(٦٦) أن الحافظ أبا الوليد الطيالسي قال: (القرآن كلام الله، ليس ببائن من الله) وسنده صحيح.

فعض بنواجذك على هذه العقيدة الصحيحة النَّيِّرَة فهي من كنوز الخير والبركة، ومما يزيدك قوة في هذه العقيدة تظافر النقل على الإجماع عليها.

ففي "مجموع الفتاوى" ٦/٥٢٨-٥٢٩ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والذي اتفق عليه السلف والأئمة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وإنما قال السلف: (منه بدا)؛ لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون: إنه خلق الكلام في المحل، فقال السلف: منه بدأ، أي: هو المتكلم به، فمنه بدأ لا من بعض المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الزمر:١] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾[السجدة:١٣] وقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ [سبأ:٦] وقال تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢] ومعنى قولهم: (إليه يعود): أنه يرفع من الصدور والمصاحف، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا منه حرف، كما جاء في عدة آثار).



سبب رفع القرآن الكريم

إن سبب رفع القرآن هو هجره هجرا كليا من جهة عدم الإقبال عليه في الحال تعلمًا ولا تعليمًا، فضلًا عن العمل به والدعوة إليه والدفاع عنه، ومن جهة عدم الإقبال عليه في المستقبل؛ لأنه لا أمة بعد أمة محمد ﷺ ولا ذرية من ذرية أمة محمد ستأتي مهيأة لقبوله؛ فاقتضت الحكمة الإلهية رفعه بعد طول هجره، فمتى حصل هذا الهجر حصل الرفع له.

روى ابن نصر المقدسي في الحجة كما في «مختصره» ١/ ٨٣ رقم (٧٤) عن يزيد بن عبدالله قال: قال معاذ: يوشك القرآن ينسخ، قالوا: ينسخ حتى لا يقرأ. قال: (لا، ولكن يسلك الناس واديًا، ويسلك القرآن واديًا غيره). وسنده حسن. وهذا الأثر ظاهره أن المسلمين سيتركون القرآن هجرًا لقراءته، وإذا لم يقرؤه فمن باب أحرى أنهم لا يستفيدون منه بشيء، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يرفع إلى منزله وهو الله العزيز الحكيم.



حال الناس بعد رفع القرآن

لقد دلت الأحاديث على أن أعظم شؤم على الأمة هو بقاؤها بدون قرآن، فرفع القرآن الكريم فاقرة عظيمة؛ فيصير حالها شر حال ينتظرون الساعة أن تقوم، والساعة أدهى وأمر.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى**» فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣] أن ذلك تامًا، قال: «**إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان؛ فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم**» رواه مسلم رقم (٢٩٠٧).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (إن من آخر أمر الكعبة أن الحبش يغزون البيت، فيتوجه المسلمون نحوهم، فيبعث الله عليهم ريحًا أثرها شرقية، فلا يدع الله عبدًا في قلبه مثقال ذرة من تقى إلا قبضته، حتى إذا فرغوا من خيارهم بقي عجاج من الناس، لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر، وعمد كل حي إلى ما كان يعبد آباؤهم من الأوثان فيعبده، حتى يتسافدوا في الطرق كما تتسافد البهائم، فتقوم عليهم الساعة، فمن أنبأك عن شيء بعد هذا فلا علم له) أخرجه الحاكم ٤/٤٥٧ وصححه، وسكت عليه الذهبي.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تتسافدوا في الطريق تسافد الحمير**» قلت: إن ذلك لكائن؟ قال: «**نعم ليكونن**» أخرجه البزار في مسنده ٤/١٤٨ رقم (٣٤٠٨) وقال: لا نعلمه من وجه صحيح إلا عن عبد الله بن عمرو بهذا الإسناد. اهـ وأخرجه ابن حبان رقم (٦٧٦٧) واللفظ له، وهو صحيح.

وفي حديث النواس بن سمعان الطويل في الدجال ويأجوج ومأجوج وفي آخره: (فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) واللفظ له، وأحمد ٤/١٨١-١٨٢.

قال القرطبي في «التذكرة» ص(٧٤٤) وهو يتحدث عن حال الناس بعد رفع القرآن: (أنهم يرتدون ويرجعون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان، فترسل نساء دوس

طائفات حوله فترتج أردافهن عند ذلك في آخر الزمان، وذلك بعد موت جميع من في قلبه مثقال حبة من إيمان).

قلت: لا يسعنا إلا أن نحمد الله على نعمة وجود القرآن وبقاء الإسلام وحفظ سنة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، اللهم سلم! سلم!

وعلى كل: ما وصل الحال بالأمة إلى ما ذكرت الأحاديث إلا بهجران القرآن، فغذِّ قلبك به، ونعِّم روحك وافتح سمعك وزك نفسك وجل عقلك في تدبره وتفهمه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.



بعد رفع القرآن تقوم الساعة على شرار الناس

رفع القرآن الكريم من الناس منذر بشر مستطير، ألا وهو قيام الساعة ولا يتخلل هذا الرفع شيء من الخير، بل يتمحض الشر في الناس، فعليهم تقوم الساعة.

روى الإمام مسلم برقم (١٤٨) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله، الله**» وفي رواية «**حتى لا يقال في الأرض: الله، الله**».

وعند أحمد عن أنس رضي الله عنه ٣/ ١٦٢ بلفظ: «**لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله، الله**» وروى أيضًا رقم (٢٩٤٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس**».

وروى الإمام أحمد ٣/ ٤٩٩ عن عِلْبَاءَ السلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة إلا على حُثَالَةِ الناس**». وهو حديث حسن.

وقد درج العلماء في شروحهم على تقرير ما نطقت به هذه الأحاديث، قال النووي في «شرح صحيح مسلم» ٢/ ١٥٣: (أما معنى الحديث: فهو أن القيامة تقوم على شرار الخلق).

وقال الحافظ ابن حجر في "الفتح" ١٣/ ٩٧: (وقد أورد مسلم عقب حديث أبي هريرة من حديث عائشة ما يشير إلى بيان الزمان الذي يقع فيه ذلك ولفظه (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى) وفيه (يبعث الله ريحًا طيبة فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان؛ فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم) وعنده في حديث عبدالله بن عمرو رفعه (يخرج الدجال في أمتي) الحديث وفيه (فيبعث الله عيسى بن مريم فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام؛ فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال حبة من خير أو إيمان إلا قبضته) وفيه (فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان، ثم ينفخ في الصور).

وقال صاحب كتاب "صحيح أشراط الساعة" ص (٣١٠): (من أشد معضلات الأمور وأخطرها على الأمة رفع القرآن العظيم والذكر الحكيم من المصاحف والصدور، واندراس الإسلام بالكلية، وقبض روح كل من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، كل ذلك يتم في آخر الزمان علامة من علامات الساعة، وتمهيدًا لإقامتها على شرار الخلق الذين لا يعرفون شيئًا من الإسلام البتة).

وقد جمع الحافظ ابن حجر في "الفتح" ١٣/ ٢٥ بين هذه الأحاديث التي صدرنا بها الباب، وبين حديث «**لا تزال طائفة من أمتي**» فقال: (والجمع بينه وبين حديث (لا تزال طائفة) حمل الغاية في حديث (لا تزال طائفة) على وقت هبوب الريح الطيبة التي تقبض روح كل مؤمن ومسلم، فلا يبقى إلا الشرار فتهجم الساعة عليهم بغتة).

قلت: فعلى هذا فالغاية في حديث «**لا تزال طائفة من أمتي لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة**» المراد به: قربها، جمعا بينه وبين الأحاديث الكثيرة في قبض أرواح المؤمنين والمؤمنات قبل قيام الساعة، وأيضًا بعد رفع القرآن يغلق باب التوبة وتأتي بقية الآيات العظام، وهي: الدابة التي ذكرها الله في كتابه بقوله: ﴿وَإِذَا

وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[النمل:٨٢] وطلوع الشمس من مغربها فيؤمن الناس عند ذلك، ولكن لا ينفعهم ذلك الإيمان ولا يقبل منهم، قال رسول الله ﷺ: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**» رواه مسلم رقم (٢٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. فعلى هؤلاء الذين لم تقبل توبتهم عند طلوع الشمس من مغربها والذين أخبرت الدابة عنهم بأنهم لا يوقنون: تقوم الساعة، وبهذا الجمع يتضح أنه إذا رفع القرآن الكريم ليس بعده إلا قيام الساعة، وإن تخلل ذلك ظهور بقية الآيات الكبرى؛ لأن ظهورها ليس إلا إيذانًا بقرب قيام الساعة على أولئك الناس لا بحصول توبة تقبل وعمل صالح يرفع.

في رفع القرآن رد على القائلين بأن الإسلام محفوظ بالمذاهب الأربعة

لقد بلغ الشغب ببعض المتعصبين للمذاهب الأربعة أن يعتقدوا أنها قد حوت كل العلم النافع وكل الإسلام، وأنها يستغنى بها عن القرآن، بل تجرأ بعضهم فقال: إن المسيح عيسى بن مريم إذا نزل في آخر الزمان حكم بمذهبه، وبعضهم يصرح أنه لا ضير على المسلمين عند رفع القرآن؛ لأن عندهم المذاهب الأربعة. فانظر إلى هذا الجهل!!

قال العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/١٧٣-١٧٥ تحت حديث رقم (٨٧) مبينًا ما ذكرنا: (فما أبعد ضلال بعض المقلدة الذين يذهبون إلى أن الدين محفوظ بالمذاهب الأربعة، و أنه لا ضير على المسلمين من ضياع قرآنهم لو فرض وقوع ذلك!! هذا ما كان صرح لي به أحد كبار المفتين من الأعاجم وهو يتكلم العربية الفصحى بطلاقة، وذلك لما جرى الحديث بيني وبينه حول الاجتهاد والتقليد... قلت له: وإذا كان الأمر كما تقولون: إن المسلمين ليسوا بحاجة إلى مجتهدين؛ لأن المفتي يجد الجواب عن عين المسألة أو مثلها، فهل يترتب ضرر ما لو فرض ذهاب القرآن؟

قال: هذا لا يقع. قلت: إنما أقول: لو فرض. قال: لا يترتب أي ضرر لو فرض وقوع ذلك! قلت: فما قيمة امتنان الله عز وجل إذن على عباده بحفظ القرآن حين قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩] إذا كان هذا الحفظ غير ضروري بعد الأئمة؟! والحقيقة أن هذا الجواب الذي حصلنا عليه من المفتي بطريق المحاورة هو جواب كل مقلد على وجه الأرض، وإنما الفرق أن بعضهم لا يجرؤ على التصريح به، وإن كان قلبه قد انطوى عليه؛ نعوذ بالله من الخذلان).

قلت: لا يوجد دليل واحد فضلًا عن أكثر منه أن المذاهب الأربعة باقية إلى وقت رفع القرآن، بل الأدلة واردة على أنه لا بقاء لها إلى الوقت المذكور ففي حديث اندراس الإسلام «**حتى لا يدري الناس ما صلاة ولا صدقة ولا صيام**» فلو كانت المذاهب موجودة لدرى الناس بهذه الأشياء وغيرها من أمور الإسلام.

وأيضًا قد ذكرت الأحاديث الصحيحة أن الله يبعث ريحًا من اليمن ألين من الحرير فتقبض كل مؤمن ومؤمنة، وهذا القبض قبل رفع القرآن، فبعد هذا القبض لا يبقى إلا القرآن؛ لأن الله ضمن حفظه ثم يرفع، أما المذاهب فتذهب بذهاب المؤمنين، وهذا إن سلمنا أنها باقية إلى هذا الزمان وما أظن ذلك؛ لأن الأدلة قد دلت على أن الملل كلها تذهب وتهلك عند نزول ابن مريم.

والمذاهب قد احتوت على ما يخالف الكتاب والسنة؛ فلا مانع من ذهابها كما ذهب غيرها؛ لأنها ليست محفوظة بحفظ الله. وقولنا: إنها تذهب مع الملل في وقت نزول المسيح هذا على احتمال بقائها إلى ذلك الوقت، ولا يلزم ذلك، فها أنت تشاهد في هذا العصر تحولا كبيرا من المسلمين عن المذاهب الأربعة فلا تستبعد أن تأتي أزمنة يتحول عنها المسلمون أكثر وأكثر، ولو فرضنا أنها باقية في عهد المهدي ونزول ابن مريم فهما عليهما السلام يحكمان بالقرآن والسنة، بالشريعة الإسلامية لا بغيرها، فما فائدة وجودها عند خروجها؟ بل الحكمة تقتضي عدم وجودها، والله أعلم.

هل يرفع البيت العتيق؟

لقد جاء في بعض الأحاديث رفع البيت ففي صحيح ابن حبان برقم (٦٧٥٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**استمتعوا من هذا البيت؛ فإنه قد هدم مرتين، ويرفع في الثالثة**» أخرجه ابن خزيمة في "صحيحه" رقم (٢٥٠٦)، والبزار رقم (١٠٧٢)، وأبونعيم في "أخبار أصبهان" ١/ ٢٠٢، والحاكم ١/ ٤٤١، وهو صحيح.

وقد فسر ابن خزيمة الرفع بالهدم قال في المصدر المذكور: (قوله: ويرفع في الثالثة: يريد بعد الثالثة إذ رفع ما قد هدم محال؛ لأن البيت إذا هدم لا يقع عليه اسم بيت إذا لم يكن هناك بناء).

وأخرج عبدالرزاق رقم (٩١٨٥) عن أبي قلابة، عن كعب أنه قال في الكعبة: (تهدمونها أيتها الأمة ثلاث مرات، ثم ترفع في الرابعة؛ فاستمتعوا بها). وسنده صحيح إلى أبي قلابة. وكعب هو المعروف بكعب الأحبار.

وظاهر الأثر أن كعبًا تلقاه من كتب أهل الكتاب، وقد جاءت أحاديث كثيرة تنص على هدم الكعبة في آخر الزمان لا على رفعها، ومنها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يبايع لرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلا أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تأتي الحبشة فيخربونه خرابًا لا يعمر بعده أبدًا، وهم الذين يستخرجون كنزه**» رواه أحمد ٢/ ٢٩١ وهذا الهدم بعد خروج يأجوج ومأجوج فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليحجن البيت، وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج**» رواه البخاري (١٥٩٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجًّا أو معتمرًا أو ليثنينهما!**» رواه مسلم رقم (١٢٥٢).

وأيضًا لا يقع هدم الكعبة إلا بعد قبض أرواح المؤمنين، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (إن من آخر أمر الكعبة أن الحبش يغزون البيت؛ فيتوجه المسلمون نحوهم، فيبعث الله عليهم ريحًا أثرها شرقية، فلا يدع الله عبدا في قلبه مثقال ذرة من تقى إلا قبضته، حتى إذا فرغوا من خيارهم بقي عجاج من الناس لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر، وعمد كل حي إلى ما كان يعبد آباؤهم من الأوثان فيعبده، حتى يتسافدوا في الطرق كما تتسافد البهائم؛ فتقوم عليهم الساعة. فمن أنبأك عن شيء بعد هذا فلا علم له) رواه الحاكم ٤/٤٥٧ وصححه وسكت عليه الذهبي، وهو كذلك ولكنه موقوف على عبدالله، ويخشى أن يكون من الزاملتين اللتين وجدهما من كتب أهل الكتاب، ولكنه يوافق الأحاديث التي فيها أن أرواح المؤمنين تقبض بعد خروج يأجوج ومأجوج.

ونعود إلى مسألتنا وهي رفع البيت فقد تقدم أن الأحاديث الصحيحة تنص على خراب البيت قرب قيام الساعة لا على رفعه، والفارق واضح بين الخراب والرفع، وتقدم حمل ابن خزيمة الرفع على الهدم، وأيضًا كثير من العلماء يعقدون العناوين في هذه المسألة بقولهم: خراب البيت هدم البيت، لا برفعه.

ومما يدل على عدم رفع البيت هو أنه ليس منزلًا من عند الله، وإنما هو أحجار وتراب من الأرض، وأيضًا لا حكمة ظاهرة من رفعه؛ إذ لا يوجد دليل على أن البيت يشهد لمن طاف حوله، ولا دليل على أن البيت يطوف أهل الجنة حوله.

فخلاصة هذه المسألة: أن البيت الحرام لا يرفع قبل يوم القيامة، بل يخرب. والله أعلم.



هل يرفع الحجر الأسود؟

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « **أكثروا استلام هذا الحجر، فإنكم توشكون أن تفقدوه بينما الناس يطوفون به ذات ليلة، إذ أصبحوا وقد فقدوه، إن الله عز وجل لا يترك شيئًا من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة**» أخرجه الأزرقي في «أخبار مكة» ١/ ٣٤٢-٣٤٣ وسنده ضعيف؛ لأن فيه عثمان بن ساج، وهو ضعيف.

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (نزل جبريل بهذا الحجر -الأسود- من الجنة فتمتعوا به؛ فإنكم لا تزالون بخير ما دام بين أظهركم، فإنه يوشك أن يأتي فيرجع به من حيث جاء به) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٦٣-٦٤. قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٢٤٢: (رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح). وسنده جيد، ولكنه موقوف وليس له حكم الرفع؛ خشية أن يكون من الإسرائيليات.

وجاء عنه بلفظ (إن الله يرفع القرآن من صدور الرجال، والحجر الأسود قبل يوم القيامة) أخرجه الأزرقي في «أخبار مكة» ١/ ٣٤٣. وهذا الأثر فيه عثمان بن ساج، وهو ضعيف. وهو موقوف على عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وليس له حكم الرفع.

وقال عثمان: وحدثت عن مجاهد أنه قال: (كيف بكم إذا أسري بالقرآن ورفع من صدوركم، ونسخ من قلوبكم ورفع الركن) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣٤٣. وهذا الأثر لا يصح عن مجاهد؛ لأن عثمان ضعيف وشيخه مبهم.

ويظهر من هذه الروايات للحديث والآثار أن عثمان بن ساج اضطرب فيه، فتارة يرويه مرفوعًا، وأخرى موقوفًا، وأخرى مقطوعًا. وفي أثر يوسف بن ماهك قال: (إن الله تعالى جعل الركن عيد أهل هذه القبلة، كما كانت المائدة عيدا لبني إسرائيل... وإن جبريل وضعه في مكانه، وإنه يأتيه فيأخذه من مكانه) أخرجه

الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣٤٣. وهذا فيه عدة علل.

فعلى كل: لا يصح في رفع الركن الأسود قبل يوم القيامة حديث ولا أثر؛ لأن أغلبها تدور على عثمان بن ساج، وهو وإن كان ضعفه يسيرًا إلا أنه تفرد بها واضطرب فيها؛ فهي منكرة، فهذا مما يزيدها وهنًا. والعمدة على الأحاديث التي صحت في أن الحجر الأسود يبعث يوم القيامة.

أخرج الإمام أحمد ١/ ٢٤٧، والدارمي رقم (١٨٨١)، والأزرقي في «أخبار مكة» ١/ ٣٢٣، وابن ماجه رقم (٢٩٤٤)، والترمذي رقم (٩٦١)، والحاكم ١/ ٤٥٧، وابن حبان رقم (٣٧١١)، وابن خزيمة رقم (٢٧٣٦)، وغيرهم من طرق عن عبدالله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « **ليبعثن الله الحجر يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به، يشهد به على من استلمه بحق**» الحديث حسنه الترمذي وصححه الحاكم وابن خزيمة والألباني والوادعي في الصحيح المسند رقم (٥٩٥) وآخرون.

وفرق كبير بين رفع الحجر الأسود إلى الله قبل يوم القيامة وبين بعثه؛ إذ الرفع يكون خاصًا به بالنسبة للجهادات، وأما البعث والشهادة فأمر مشترك، فالأرض يأتي بها رب العالمين؛ فتشهد بما عمل عليها.

الفصل الخامس:

الأحاديث الضعيفة الواردة في رفع العلم

الحديث الأول:

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: لما كان في حجة الوداع قام رسول الله ﷺ، وهو يومئذ مردف الفضل بن عباس على جمل آدم، فقال: «**يا أيها الناس، خذوا من العلم قبل أن يقبض العلم، وقبل أن يرفع**». وقد كان أنزل الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة:١٠١] قال: فكنا قد كرهنا كثيرًا من مسألته واتقينا ذلك حين أنزل الله عز وجل على نبيِّه ﷺ قال: فأتينا أعرابيًّا فرشوناه برداء قال: فأعتم به حتى رأيت حاشية البرد خارجة على حاجبه الأيمن، قال: ثم قلنا له: سل النبي ﷺ. فقال له: يا نبي الله، كيف يرفع العلم منا وبين أظهرنا المصاحف، وقد تعلمنا ما فيها وعلمناها نساءنا وذرارينا وخدمنا؟! قال: فرفع النبي ﷺ رأسه وقد علت وجهه حمرة من الغضب قال: فقال: «**أي ثكلتك أمك!! وهذه اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف لم يصبحوا يتعلقوا بحرف مما جاءتهم به أنبياؤهم، ألا وإن من ذهاب العلم أن يذهب حملته**» ثلاث مرار. أخرجه أحمد ٥/٢٦٦، واللفظ له وأخرجه الدارمي مختصرًا رقم (٢٤٠)، وابن ماجه رقم (٢٢٨)، والطبراني في "الكبير" رقم (٧٨٧٥، ٧٨٦٧)، وهو ضعيف جدًّا؛ لأنه يدور على علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.

الحديث الثاني:

عن سهل بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزال الأمة على الشريعة ما لم يظهر فيها ثلاث: ما لم يقبض العلم منهم، ويكثر فيهم ولد**

الحنث، ويظهر فيهم الصقارون»، قال: وما الصقارون أو الصقلاوون، يا رسول الله؟ قال: «نشء يكون في آخر الزمان، تحيتهم بينهم التلاعن» أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٩، والطبراني في "الكبير" ٢٠/ ٤٣٩، وابن عدي في "الكامل" ٣/ ١٠١١، والحاكم ٤/ ٤٤٤ وصححه، فتعقبه الذهبي بقوله: منكر.

الحديث الثالث:

عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «يقبض الله عز وجل العلماء قبضًا ويقبض العلم معهم، فينشأ أحداث ينزو بعضهم على بعض نزو العير على العير ويكون الشيخ فيهم مستضعفًا» رواه الطبراني في "الأوسط" ٢/ ٢٥٠، وقال: (لم يروِ هذا الحديث عن عمرو بن الحارث إلا رشدين تفرد به الحجاج بن رشدين).

وقال الهيثمي في "المجمع" ١/ ٢٠١: (وفيه حجاج بن رشدين بن سعد عن أبيه، والحجاج ضعفه ابن عدي، ولم يوثّقه أحد، وأبوه اختلف في الاحتجاج به، والأكثر على تضعيفه).

الحديث الرابع:

عن أبي الزاهرية رضي الله عنه -يرفع الحديث-: «إن الله قال: أبث العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والذكر والأنثى والحر والعبد والصغير والكبير، فإذا فعلت ذلك بهم آخذتهم بحقي عليهم»، أخرجه الدارمي رقم (٢٥٩)، وابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" رقم (١٢١٠)، وأبو نعيم في "الحلية" ٦/ ١٠٠ واللفظ له.

قلت: الحديث ضعيف لأنه مرسل؛ لأن أبا الزاهرية حُدَيْرُ بن كُرَيْبٍ هو تابعي.

الحديث الخامس:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يزل أمر بني إسرائيل معتدلًا، حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم؛ فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا» أخرجه ابن ماجه رقم (٥٦) وهو منقطع. وأخرجه البزار كما في "كشف

الأستار» ١/ ٩٦ وقال: (لا نعلم أحدًا قال: عن هشام عن أبيه عن عبدالله بن عمرو إلا قيس. ورواه غيره مرسلًا). اهـ

قلت: قيس بن الربيع ضعيف؛ فالحديث ضعيف، وقد سبق أن ذكرنا أنه صح من قول عروة بن الزبير.

الحديث السادس:

عن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعلموا القرآن، وتعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس؛ فإني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض، حتى يختلف الرجلان في الفريضة، لا يجدان من يخبرهما**» أخرجه أبويعلى في «مسنده» رقم (٥٠٢٨)، والدارمي رقم (٢٢٧) واللفظ له، والحاكم ٤/ ٣٣٣، والبيهقي ٦/ ٢٠٨، والطيالسي رقم (٧٦).

الحديث يرويه عوف بن أبي جميلة، وقد اضطرب فيه، فتارة يقول: عن سليمان ابن جابر عن أبي الأحوص عن ابن مسعود. وتارة يقول: عن رجل يقال له سليمان ابن جابر عن ابن مسعود. وتارة يقول: عن رجل، عن سليمان بن جابر. وتارة يقول: بلغني عن سليمان بن جابر. قال العلامة الألباني في «الإرواء» (١٦٦٤): (وقد أعله الترمذي بالاضطراب. وأعله الهيثمي كما في «المجمع» ٤/ ٢٢٣ بقوله: وفي إسناده من لم أعرفه). اهـ

قلت: سليمان بن جابر مجهول، فالحديث ضعيف.

الحديث السابع:

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي على الناس زمان يرفع فيه العلم، ولكن يذهب العلماء، فيبقى قوم جهال، فيَضِلوا ويُضَلوا**» أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٤٦٣ وقال: (وهذا الحديث بهذا الإسناد منكر لا يرويه عن أبي حازم غير بكر بن سليم، لا أعرفه إلا من هذا الطريق).

الحديث الثامن:

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا استلام هذا الحجر؛ فإنكم توشكون أن تفقدوه بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذا أصبحوا وقد فقدوه، إن الله عز وجل لا يترك شيئًا من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة**» أخرجه الأزرقي في «أخبار مكة» ١/ ٣٤٢-٣٤٣. وهو ضعيف؛ لأن فيه عثمان بن ساج قال الحافظ في التقريب: فيه ضعف.

الحديث التاسع:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: (إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال، والحجر الأسود قبل يوم القيامة) أخرجه الأزرقي في المصدر السابق ١/ ٣٤٣. وسنده كالذي قبله. وقد أخرجه ابن عبد الحكيم في «فتوح مصر» (٢٥٥)، والديلمي في «الفردوس» رقم (٧٥٤٢) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا بلفظ: «**لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن والمقام**».

قال العلامة الألباني في «السلسلة» رقم (٤٧٨٩): (وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف ابن لهيعة وشيخه أبي زرعة).

الحديث العاشر:

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث جاء، فيكون له دوي حول العرش كدوي النحل، فيقول له الرب عز وجل: ما لك؟ فيقول: منك خرجت وإليك أعود، أُتلى ولا يُعمل بي. فعند ذلك يرفع القرآن**» أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» ٥/ ٧٩-٨٠ رقم (٧٥١٣)، وإسناده في «زهر الفردوس» ٤/ ٢٠١، وهو ضعيف لأن في سنده ابن لهيعة وهو ضعيف. وأبوقبيل الراوي له عن عبدالله بن عمرو وإن كان ثقة، إلا أنه كان ينقل من كتب المتقدمين؛ فيخشى أن يكون هذا منها.

وبالانتهاء من هذا الفصل أختم كتابي هذا، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات!!



الفهرس

المقـــدمة ٥

الفصل الأول: **منزلة العلم الشرعي ومكانته** ٧

منزلة العلم الشرعي عند أهله ٧

المفاضلة بين العلم وبين عبودية الله وحده لا شريك له ١٠

المفاضلة بين العلم وبين صلاة الليل وصلاة النوافل ١١

المفاضلة بين العلم وبين الجهاد في سبيل الله ١٢

المفاضلة بين العلم والإنفاق في سبيل الله ١٥

المفاضلة بين سلطان العلم وسلطان الملك ١٦

المفاضلة بين العلم والمال ١٦

المفاضلة بين العلم وسائر اللذات ١٧

بالعلم يقهر أعداء الإسلام ١٩

إذا أطلق العلم في القرآن والسنة فالمراد به: العلم الشرعي، وإذا أطلق العلماء فالمراد بهم: علماء الإسلام الذَّابُّون عن سنة سيد الأنام ٢٠

مكانة أهل العلم الشرعي وافتقار العالَم إليهم ٢٠

أحوج الناس إلى العلم الشرعي: العلماء ٢٥

خلق الله الجن والإنس لمعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله ٢٦

الفصل الثاني: **رفع العلم** ٢٩

الأدلة على نقصان العلم ورفعه ٢٩

ذكر الأحاديث التي فيها رفع العلم ٣٠

الحكمة من إخبار الرسول ﷺ برفع العلم ٣٤

رفع العلم على قسمين حسي ومعنوي..... ٣٥
أول ما يرفع من العلم من أعمال القلوب وأصول الإيمان دقيقها وخاصها ٣٥
أول ما يرفع من العلم معرفة الله المعرفة الخاصة..... ٣٧
أول ما يرفع من العلم في آخر عصر السلف معرفة الله بأسمائه وصفاته..... ٣٨
الخشوع أول ما يرفع من دقيق العلم..... ٤٠
الأمانة أول ما يرفع من العلم..... ٤١
عدم الاحتكام إلى سنة النبي ﷺ أول ما يرفع من العلم الظاهر..... ٤٣
إشكال وجوابه ٤٥
بداية رفع العلم بعد موت الرسول ﷺ..... ٤٥
هل رفع شيء من العلم في عصر الصحابة؟ ٤٧
رفع العلم في عهد التابعين ٤٩
الأحاديث الدالة على رفع العلم حتى لا يبقى إلا علم اللسان..... ٥١
بداية ظهور رفع علم اللسان ٥٢
رفع كثير من علم القلب وعلم اللسان بسبب التمذهب..... ٥٤
حصول رفع العلم من كل العلوم الشرعية في العصور المتأخرة..... ٥٦
رفع العلم حتى تكون أكثر أعمال المسلمين على جهل ٥٧
رفع العلم حتى استحكم هجران النصوص ٥٨
بعض أهل البدع يطالبون برفع العلم..... ٦٠
رفع العلم في عصرنا ٦٢
إذا ذهب العلم الشرعي زادت العلوم المضرة وانتشرت بين المسلمين ٦٤
الفصل الثالث: **أسباب رفع العلم**..... ٦٧
الأحاديث الدالة على أن سبب رفع العلم ذهاب العلماء الربانيين..... ٦٧
الآثار الصحيحة في أن رفع العلم بسبب ذهاب علماء الإسلام..... ٦٩
موت الصحابة علامة على رفع كثير من العلم ٧٣

موت علماء السنة فساد لنظام العالم إن لم يخلفهم من يقوم مقامهم ٧٥
أصل رفع العلم بسبب عدم العمل به ٧٧
ومن أسباب رفع العلم ترك الدعوة إليه ٧٩
ومن أسباب رفع العلم انحراف العلماء ٨٠
ومن أسباب رفع العلم: الجهل بمقاصد الشريعة الإسلامية ٨٢
ومن أسباب رفع العلم تلقيه عند الأصاغر وترك الأكابر ٨٣
ومن أسباب رفع العلم تلقيه على أيدي أهل البدع والتحزب ٨٦
ومن أسباب رفع العلم اتباع اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من أهل الكفر ... ٨٩
ومن أسباب رفع العلم عدم معرفة الشر وأهله مفصلاً ليجتنب ٩١
ومن أسباب رفع العلم بعد عصر السلف قلة الرحلة في طلبه ٩٣
ومن أسباب رفع العلم: التمذهب ٩٥
ومن أسباب رفع العلم اتباع المتشابه ٩٨
ومن أسباب رفع العلم كثرة الجدال ٩٩
ومن أسباب رفع العلم عدم تدبر كلام الله وكلام رسوله ﷺ ١٠٢
ومن أسباب رفع العلم عدم الرجوع إلى أهل العلم عند الفتن ١٠٤
ومن أسباب رفع العلم تعلم المولدين له ١٠٥
ومن أسباب رفع العلم ترك التعلم من قبل أصحاب الأفهام الجيدة ١٠٦
ومن أسباب رفع العلم تلقيه من الصحف ١٠٧
ومن أسباب رفع العلم التنفير عن علماء السنة والجماعة والحيلولة بينهم وبين المسلمين ١٠٨
ومن أسباب رفع العلم النسيان له ١١٠
ومن أسباب رفع العلم قلة اقتناء الكتب النافعة ١١١
ومن أسباب رفع العلم التسليم بأن الشريعة الإسلامية لا تفي بكل ما يحتاجه الناس ١١٢

رفع العلم بسبب المعاصي ١١٣
رفع العلم بسبب قيام الحكام والأمراء بفتح المجال لعلماء الضلال بنشر ضلالهم .. ١١٥
آفات تضر بالعلم وأهله ١١٧
لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق حتى يقاتل آخرها الدجال ١١٩
الفصل الرابع: **رفع القرآن** ١٢١
رفع القرآن ١٢١
رفع القرآن من الآيات العظام ١٢٣
عقيدة السلف في رفع القرآن ١٢٤
سبب رفع القرآن الكريم ١٢٦
حال الناس بعد رفع القرآن ١٢٦
بعد رفع القرآن تقوم الساعة على شرار الناس ١٢٨
في رفع القرآن رد على القائلين بأن الإسلام محفوظ بالمذاهب الأربعة ١٣٠
هل يرفع البيت العتيق؟ ١٣٢
هل يرفع الحجر الأسود؟ ١٣٤
الفصل الخامس: **الأحاديث الضعيفة الواردة في رفع العلم** ١٣٧
الفهرس ١٤١